الطريق إلى الله تعالى

جميع حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الثانية
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

الطريق إلى الله تعالى

تأليف

الشيخ حسين البحراني رحمه الله

تحقيق وتعليق

الشيخ حبيب الكاظمي

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف بالكتاب والمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على خير خلقه محمد وآله الطاهرين، الذين تممّ الله تعالى بهم مكارم الأخلاق، واللعنة على أعدائهم ومنكري فضائلهم من أول الدنيا إلى أبد الآبدين.

إنّ هذا الكتاب الذي بين يديك، يُعدّ واحداً من أفضل ما كُتب في الأخلاق العملية بلحاظ:

اختصاره وتركيزه:

فإنّ خير الكلام ما قلّ ودلّ، سواء في عالم الملفوظات أو المكتوبات.. فمن المعلوم أنّ الكلام الكثير في الموضوع الواحد ـ وإن كان نافعاً ـ قد يُشتِّت ذهن المستفيد، ولهذا نلاحظ القرآن الكريم الذي يحقّق سعادة الخلق باتباعه، لا يتجاوز في حجمه حجم الكُتب المتعارفة في هذه الأيام.

جامعيته واعتداله:

وعدم التركيز على مجالٍ على حساب مجالٍ آخر: فالبعض

ينظر إلى الأخلاق من زاوية العبادات اللفظية، فينتقل من وردٍ إلى وردٍ، ومن ختمةٍ إلى ختمةٍ، ومن أربعينيةٍ إلى أربعينيةٍ، وكأن العبد يتحوّل إلى عالم الملكوت في ليلةٍ واحدةٍ بوردٍ معينٍ، ناسياً أنّ الطريق هو ما دعا إليه القرآن من الاستقامة والمجاهدة والسعي في العمل بكل حذافير الشريعة، بدءاً بالأمور الفردية من القيام بالواجبات وترك المحرّمات، ومروراً بالمستحبات والمكروهات، وانتهاءً بالأمور الاجتماعية، ولو استلزم أن يكون قتالاً في الميدان مع أعداء الله تعالى.

وقد أشرنا في مطاوي الكتاب إلى صور من هذه الجامعية التي اتّسم بها هذا التأليف.

واقعيته:

فنرى المؤلف يميل إلى عرض الأخلاق كصور تطبيقية يلتزم بها الإنسان عند الممارسة، بدلاً من مجموعة من الأفكار المعقّدة التي هي أشبه بالطلاسم والألغاز.. وكأنّ صاحبها يريد أن يثبت بها فضله العلمي وتفوّقه على أقرانه، فتقرأ الكتاب المرة أو المرتين من دون أن تجد في طيّاته نقطة واحدة تطبيقية تُمارس في ساحة الحياة، يغيّر بها الإنسان سلوكه بدلاً من الترف العلمي المجرّد.

التزامه بمنهج أهل البيت عليهم السلام:

فلا يكاد المؤلف يدع مجالاً إلا واستشهد فيه بحديثٍ مأثورٍ

مما رُوي عن هداة الخلق ﷺ، مما يعكس عمق التزام المؤلف بضرورة عرض كلّ كبيرةٍ وصغيرةٍ في الحركة إلى الله تعالى على ما ورد عنهم ﷺ، وهو كثيرٌ في تراثهم المدوّن في المجاميع الروائية المختلفة.

إننا نعتقد أنّ كلّ سالكٍ إلى الله تعالى مجانبٍ لمنهج أهل البيت ﷺ مصيره الوقوع إما في: مكائد الشيطان، أو في خدع النفس، ويكفي أحدهما للهلاك الدائم، فكيف إذا اجتمع عاملا الهلاك في آنٍ واحد!.

فهل يَرِد الواردون على السلطان من غير الباب الذي أمرهم بطرقه؟!.. إذ المطلوب ليس هو دخول الدار ـ وإن كان الدخول مطلوباً ـ كيفما اتّفق، بل لا بدّ من أن يكون من الأبواب التي أُمرنا بطرقها.. فالداخل عليك من سطح الدار سارقٌ، وإن كان بداعي الوصول إليك، وملازمة الخدمة بين يديك.

ولقد وفّق الله تعالى المؤلف، فجعل لكلامته حلاوةً يستذوقها كلّ من قرأ كتابه، ممن أُوتي حسن التذوّق في هذا المجال.. فإنّ ما يخرج من القلب يدخل في القلب، فقد ذكر عنه السيد محسن الأمين «قدّس سرّه» في أعيان الشيعة قائلاً:

الشيخ حسين بن علي بن صادق البحراني عالمٌ فاضلٌ أخلاقيٌّ من متأخري المتأخرين، من فقهاء النجف وعلمائها في الحديث

والرجال والعرفان، رأينا له رسالة في الأخلاق ـ يشير إلى هذا الكتاب ـ ثم يقول:

وإنها رسالةٌ حسنةٌ، ولم يبق ببالي الآن مشخصاتها، وقال بعض من رآها: إنها من أحسن ما كُتب في هذا الفن، وبعضٌ قال: إنها رسالةٌ في السلوك على طريقة أهل البيت[١].

وقد ذكر عن كتابه البحّاثة المحقّق الكبير الشيخ آغا بزرك الطهراني، في كتابه (الذريعة) قائلاً:

رأيته في مكتبة سيدنا العلّامة الحسن صدر الدين الكاظمي، وكان يستحسنه كثيراً ويقول: ما رأيت كلاماً أحسن من كلامه في باب الأخلاق، اللهم إلا بيانات جمال السالكين للسيد رضي الدين علي بن طاوس.

وذكر في التكملة: **أن مؤلفه من متأخري المتأخرين من فقهاء النجف وعلمائها في الحديث والرجال[٢].**

وقال عنه المحدّث القمي في الكنى والالقاب:

قال الشيخ الجليل العارف الرباني الشيخ حسين بن علي بن

(١) أعيان الشيعة: ج٦، ص١١٩.
(٢) الذريعة: ج١، ص٣٧٢.

صادق البحراني في رسالته في الأخلاق والسلوك إلى الله، على طريقة أهل البيت عليهم السلام[١].

والمؤلف وإن لم يُذكر عنه الكثير في كتب التراجم سوى ما ذكرناه آنفاً، إلا أنّ جلالة الكاتب تتجلّى من خلال ما كتبه، فإنّ الكتاب مرآة لكاتبه وخاصةً إذا لاحظنا انسيابية أفكاره في القلوب المتعطشة لهذا النمط من الكتابات، التي لا بدّ من طرحها على مجتمعنا اليوم، الذي شغلته الدنيا بما لم يتفق له نظيرٌ في التاريخ.

فلم نعهد على الأرض هذه الصور من الافتتان التي تُعرض بشكل غير معهود في تاريخ الإنسان.. فالإنسان لا زال هو بقدراته المحدودة وضعفه أمام قوتي الشهوة والغضب، ومكابدته لعدوٍّ خبيرٍ في الإغواء منذ أن خُلق آدم عليه السلام، بينما صور الإغراء ـ وهي سهام إبليس في كل المجالات ـ تزداد تكاملاً وشيوعاً يوماً فيوماً، ولا ندري إلى أين تصل هذه القافلة المتسارعة نحو موجبات الردى والهلاك؟!.

إنّ على المعنيين بشؤون النفس، أن يكرّسوا جهودهم من أجل طرحٍ جديدٍ لمقاومة هذه الأمواج المتلاطمة التي تثيرها شياطين الجنّ والإنس..

فلم يعد أسلوب الوعظ القديم، وبعض المناهج الأخلاقية

(١) الكنى والالقاب: ج١، ص٣٢٩.

القائمة على أسلوب التوصيات العامة المجرّدة من التجزيء، والطلبات التنظيرية الخالية من الأساليب العملية، كافياً لردع النفوس الحائرة بين مقتضيات الطبع ومقتضيات الشرع.

إننا بحاجة إلى كتابة أخرى بلغة العصر، وبلحاظ العقبات الجديدة، وبأسلوبٍ علميٍّ متدرجٍ، وبخطواتٍ عمليةٍ تطبيقيةٍ واضحةٍ، فإنّ رياضة النفس كرياضة الأبدان لها قواعدها، ولا يمكن تحقيق نتائجها إلا بالمرحلية أولاً، وفي الميدان العملي ثانياً.

وإكمالاً للفائدة، وتنويهاً للنقاط المهمة في كتاب المؤلف، فإننا حاولنا استغلال ما أمكن من فرصةٍ، للتعليق على تلك النقاط بما يزيد الأمر وضوحاً، والفكرة تركيزاً، مع الإشارة إلى مصادر الأحاديث التي لم ترد في الطبعة المحقّقة الأولى..

ولا بدّ من التنويه إلى أننا لم نجد مصادر بعض الأحاديث التي وردت في الكتاب، لأن المصنّف نقلها بالمعنى كما ذكر في أول كتابه قائلاً: (ولا تحرٍّ لنقل خصوص الألفاظ... فإن المقصود مجرّد الإشارة).

أشركنا الله تعالى ـ بمنّه وكرمه ـ في ثواب ما سجّله يراع هذا العالم الربّاني في كتابه، الذي طالما أخذ بمجامع القلوب التي تهفو إلى الخلاص من أسر المادة، والعروج إلى عالم الملكوت.

وأخيراً نقول: يبدو أن القضاء حال دون أن يتمّم المؤلف كتابه ـ كما ذكر في آخر كتابه ـ وتمنّى أن يخلف عليه من يتمّ هذا الكلام،

فنسأل الله عز وجل أن يجعل ما علّقناه على كتابه، بمثابة هذا التتميم الذي تمنّاه.. بلغ الله تعالى أمانيه في عالم الآخرة.

ربّنا تقبّل منّا إنك أنت السميع العليم.. ربّنا واجعل سعينا في تحبيب القلوب إليك، فمن أولى منك ليسكن هذا القلب، الذي أردته حرماً لك، وقد جعلناه مأوى لكلّ فانٍ سواك؟!.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

حبيب الكاظمي
٣ ذو الحجة ١٤٢٢

مقدمة المؤلف

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، والعاقبة للمتّقين، وصلى الله على خيرته المنتخبين، وصفوته المنتجبين، ومظهر لطفه في العالمين، محمد وآله الطاهرين.

وبعد، فيقول العبد الجاني، والأسير الفاني حسين بن علي بن صادق البحراني: إني مستعينٌ بربي ومتوكّلٌ عليه، ومتوجّهٌ إليه بأحبّ الخلق إليه، في جمع نبذٍ من نصائح أهل البيت عليهم السلام لشيعتهم، وإرشادهم لمواليهم، التي بها حياة قلوبهم، واستنارة عقولهم المظلمة من مخالطة الأهوية والشهوات المكدّرة من خطرات المعاصي والسيئات، وأرجو من الله الإمداد والإسناد، وأن يجعله ذخراً لي ليوم المعاد، إنه الكريم الجواد، وعليه التوكّل والاعتماد، وهو حسبي ونِعْمَ الوكيل.

ولنقدّم لذلك مقدمةً، يظهر منها ما هو الغرض من إثبات هذه الكلمات، والتنبيه على هذه النكتات، وذلك أني كثيراً ما كنت أمنّي نفسي الميّالة للباطل، بجمع ما استفدت من آثار أهل البيت عليهم السلام،

في الإيقاظ لهذه القلوب الغافلة، والإحياء لهذه النفوس الميتة، بإدبارها عن الله وإعراضها عنه، فيمنعني عن ذلك عدم نشاطي للعمل، وملازمتي للكسل، فيكون ذلك وبالاً عليَّ، فإنّ العلم إذا لم يُعمل به لا يزيد صاحبه إلا بُعداً من الله، ولا يُرجى به التأثير في القلوب، لما اشتملت عليه أخبار أهل البيت عليهم السلام، من أن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلّت موعظته من القلوب(١).

ولما رأيت تقضّي العمر، ومشارفة الأجل، ورأيت أنّ التسويفات لا تجدي، والتعللات لا تفيد، وقادني إلى ذلك التماس بعض الأحبّة، وإرادة جملة من الخلّان، استخرتُ الله سبحانه، وقصدتُ أن يكون ذلك تذكرةً لنفسي، عسى أن تتنبّه عن غفلتها، ورجوت فيه اليمن والبركة بسبب كونه إجابة الإخوان في الله، وتقربةً إلى الله سبحانه في خدمة أخبار أهل البيت عليهم السلام، ورجوت منه أن يشرّفني بذلك.

فعزمت بحول الله وقوته على جمع مضامين من أخبار أهل البيت عليهم السلام في أبوابٍ متفرّقةٍ، وأصولٍ متعدّدةٍ، من غير ذكر الأسانيد، ولا تحرٍّ لنقل خصوص الألفاظ، فإنّ مضامينها بعد التنبيه عليها، والتنبّه لها مما تصدّقها العقول السليمة، وتشهد بها الفطرة المستقيمة، فإنّ المقصود مجرّد الإشارة، والاستعانة بالله، ومنه التوفيق للعمل، وعليه المتكل.

---

(١) الكافي: ج١، ص٤٤.

الباب الأول

في الحاجة إلى تهذيب الأخلاق، وبيان ثمرته وشدّة الاعتناء بشأنه

اعلم أيّدك الله أنّ النبي ﷺ قال: «**بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[١].

ولا التباس في ذلك، فإنّ أمر المعاد والمعاش لا ينتظم، ولا يتهنأ طالبه إلا بالخُلق الكريم، فلا تتوهّم أن العمل الصالح الكثير ينفع من دون تهذيب الخُلق وتقويمه، بل يجيء الخُلق السيّىء فيُفسد العمل الصالح، كما يفسد الخلّ العسل[٢]. فأي نفع فيما عاقبته الفساد؟.

ولا تتوهّم أنّ العلم الكثير ينفع من دون إصلاح الخلق وتهذيبه، حاشا وكلّا، فإنّ أهل البيت عليهم السلام قالوا: «**لا تكونوا علماء جبّارين، فيذهب بحقّكم باطلُكم**»[٣].

(١) البحار: ج٦٨، ص٣٨٢.
(٢) الكافي: ج٢، ص٣٢١.
(٣) أمالي الصدوق: ج٩، ص٢٩٤.

ولا تتوهّم أنّ صاحب الخلق السيّىء، يقدر أن يتهنّأ[(١)] بمعاشرة والد أو ولد أو زوج أو صديق أو رفيق أو دار أو أستاذ أو تلميذ. .كلا، بل كلّهم يتأذّون منه وينفرون عنه، وكيف يمكنه اكتساب الكمالات المتفرّقة في الناس، وأهل الكمال ينفرون منه ويهربون عنه؟!.

واعلم أنّ من نظر إلى طريقة أهل البيت عليهم السلام، وتتبع في آثارهم وجد هدايتهم للخلق، وجلبهم للدين، إنما هو بأخلاقهم الكريمة، وبذلك أمروا شيعتهم فقالوا: «**كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم**»[(٢)].

بل يعنون بأخلاقكم الكريمة، وأفعالكم الجميلة، حتى تكونوا قدوة لمن اقتدى، وأسوة لمن تأسّى.

فإذا ظهر أنّ أمر المعاش والمعاد إنما يتمّان بمكارم الأخلاق،

---

(١) إنّ هذا المدخل الذي دخل منه المؤلف مدخلٌ مهمٌّ لجذب النفوس التي لا تستجلبها المعاني الإلهية التي تحتاج إلى بلوغ روحي، كطلب درجة الرضوان الإلهي، والنظر إلى الوجه الكريم وغير ذلك. . فليس هناك عاقلٌ لا يريد السعادة الاجتماعية والحياة الدنيوية المستقرّة، إلى جانب الرغبة في العاقبة الحميدة، سواء في البرزخ أو القيامة. . وعليه فإنّ سلوك هذا الطريق يضمن الاطمئنان القلبي والاستقرار الاجتماعي، وهما الضالتان اللتان فقدهما أهل الدنيا بابتعادهم عن نهج السماء. . وعليه لا بدّ للسالك أن يمنّي نفسه في أول الطريق ببعض هذه الجواذب العاجلة. (المحقق).

(٢) الكافي: ج٢، ص٤٦.

وإنّ إتمام مكارم الأخلاق هو فائدة البعثة، التي ما صلح الوجود إلا بها، تبيّن أنّ تهذيب الأخلاق مقدّمٌ على كلّ واجب وأهم من كل لازم، ومع ذلك هو مفتاح كل خير، والمنبع لكل حسن، والجالب لكل ثمرة، والمبدأ لكل غاية.

انظر فيما ورد من أنّ الكفار يثابون على مكارم الأخلاق، وفي الذي كان دأبه مخالفة النفس فجرّه ذلك إلى الإيمان، وفي الذي كان سخياً وكان من الأسرى عند النبي ﷺ، فنزل جبرائيل عليه السلام من الله عزّ وجلّ بأن: لا تقتلوه لسخائه، فجرّه ذلك إلى السلامة من القتل في العاجل، والفوز بالجنة آجلاً[١].

فإذا عرفت هذه المقدمة، التي يظهر لكل من اختارها وجرّبها صحّتها وصدقها، فاعلم ـ وفّقك الله وأرشدك ـ أنّ لأهل البيت عليهم السلام أصولاً في الأخلاق، وقواعد وضوابط تُعين ملاحظتها على كسب الأخلاق بسهولة ويسر، لا بتكلفٍ وعُسر، كما يدور عليه كلام علماء الأخلاق.

فإنّ النبي ﷺ أتانا في علم الشريعة بالشريعة السمحة السهلة، موافقاً لما أخبرنا به ربّه عزّ وجلّ، من أنه يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر، وأنه ما جعل علينا في الدين من حرج. كذلك في علم الطريقة فتح لنا أبواب اليسير، وسدّ عنا أبواب العسير.

---

(١) البحار: ج٦٨، ص٣٩٠.

فلا يثبطنّك الشيطان عن أخذ نصيبك من علم الأخلاق، بأن ذلك أمر صعب يتوقف على مجاهدة النفس، ورياضات بالغة!.. وأين أنت عن ذلك؟!.. فإنا رأينا أهل المجاهدات الشاقّة، والرياضات البالغة، ما أوصلتهم إلا لمقاصد دنيوية، ومقامات ردية، من غير رسوخ لهم بطريقة أهل البيت ، ولا تشبّهٍ لهم في أطوارهم[(١)].

وأصل هذا المعنى وبيانه: أن تعلم أن الله سبحانه وتعالى بلطف حكمته وجميل صنعته بهر العقول، وامتحن أهلها، بأن طلب من الخلق أموراً كليّة عظيمة، وجعل مفاتيحها أموراً جزئية حقيرة، فمن استعظم الأمور الموصلة إليها وتهاون عنها، فاته ما أريد منه،

(١) لقد أشار المصنّف هنا إلى ظاهرةٍ خطيرةٍ طالما أوقعت من يدّعون السير إلى الله تعالى في الوهم.. فحصروا الطريق بتعذيب النفس بالرياضات التي ما أنزل الله تعالى بها من سلطان، فخسروا لذّة الدنيا، ولم يصلوا إلى لذّة الآخرة.
والسرّ في ذلك أنهم جعلوا جهاد النفس ذريعةً لحيازة شيء من متاع الدنيا ـ ولو كان جلباً للمريدين - لعلمهم أن السيطرة على النفس بقواها المختلفة تجعلها مؤثرة في بعض الأمور، كما تلاحظها خارجاً، إذ النفس طاقةٌ من طاقات هذا الوجود، مليئةٌ بالأسرار المذهلة، فكما أنّ الطاقات الأرضية تعمل الأعاجيب في عالم الآفاق، فكذلك الطاقات الروحية تعمل الغرائب في عالم الأنفس.. ولكن لنتساءل ونقول: هل أننا خُلقنا لمثل ذلك؟!.. وهل طلب منا المجاهدة لنحقق حظاً من حظوظ أنفسنا، وإن كان في لباس الرقيّ والتكامل؟!... (المحقق).

وكان ذلك من أعظم الامتحان له، ومن توسّل بتلك الأمور الجزئية، أوصلته إلى تلك المطالب النفيسة الكلية، فهو لم يأت إلا الجزئي الحقير مع أنه أوصله إلى الكلي النفيس الكثير، وذلك من أعظم السعادات له.

فتدبّر هذه الحكمة البالغة، وأمعن النظر فيها، يظهر لك كيف أقام الحجة البالغة على هذا الخلق، وأكمل لهم النعمة السابغة.

فيا لها من نعمة!..كيف أوصلهم بهذه الجزئيات إلى هذه المراتب السامية؟!.

ويا لها من حجةٍ!.. كيف عرّضوا أنفسهم للهلكة الدائمة، والعقاب الأليم، وكان يخلّصهم منها الإتيان بجزئيات حقيرة؟!.

فمن تأمّل هذه الحكمة واقتبسها من آثار أهل البيت عليهم السلام، ظهر له معنى قوله: «**إنّ من استقلّ قليل الرزق حرم كثيره**»(١) وأنّ مبدأ كل الشرور والمهلكات هو استقلال القليل، واستحقار الحقير.

كما أن مبدأ الخير نابعٌ من مفهوم هذا الحديث، فإنّ مَن لم يستقلّ قليل الرزق لم يُحرم كثيره.

وبعد تتبّعك هذا المعنى تجد شواهده في الحبل المحكم، والأخبار لا تُحصى ولا تُعدّ منها قولهم عليهم السلام: «**اتقوا محقرات**

(١) الكافي: ج٢، ص٢٠٧.

الذنوب»[١]. وقولهم عليهم السلام: «**لا تستحقروا طاعةً، فربما كان رضا الله تعالى فيها.. ولا تستحقروا معصيةً.. فربما كان سخط الله فيها**».

إلى غير ذلك من أخبارهم عليهم السلام، فاتضح للمستبصر المسترشد أن طريقة الشرع الشريف المحمدية، إنما هي مبنية على أمور جزئية سهلة يسيرة بإذن الله موصلة إلى أسنى المطالب وأهنى الرغائب[٢].

ويزيد هذا المعنى وضوحاً، التأمّل في الحديث القدسي، حيث يقول رب العزة سبحانه: إنّ مَن تقرّب إليّ شبراً أتقرّب إليه ذراعاً[٣].

فإذا كان هو سبحانه يدنو إلى من دنا منه، ويدعو إلى نفسه من أدبر عنه، فكيف بمن أقبل إليه، وقرع بابه؟!.

---

(١) المصدر نفسه: ج٢، ص٢٠٧.

(٢) إنّ هذا الأسلوب من الترغيب مؤثرٌ في النفوس التي تخشى من البدء بالحركة بعد مرحلة اليقظة، ظنّاً منها بأن طريق الآخرة سالبةٌ لنعيم الدنيا وملذاتها.. وأنّ الأمر يحتاج إلى مجاهداتٍ مرهقة، كالتي يتبعها المرتاضون من أهل الفرق المنحرفة بل الكافرة، وإنّ الغايات لا تُنال إلا بما يلحق بالمعسورات أو المتعذرات وغير ذلك من موجبات الوهن.. والحال أنّ الشريعة ما حرّمت حراماً إلا وكان ـ في الغالب ـ حلالاً بجانبه بدلاً عنه.. ودائرة الإلزاميات ـ فعلاً وتركاً ـ أضيق بكثير من دائرة المباحات بما لا يُقاس معه.. فأين التضييق الذي يجعله العبد ذريعةً للركون إلى ما يشبه حياة البهائم كما وصفها علي عليه السلام: «همّها علفها، وشغلها تقمّمها؟!..(المحقق).

(٣) الجواهر السنيّة: ص١٢٩.

وكفاك قول سيد العابدين في دعاء السحر: «**وإن الراحل إليك قريب المسافة، وإنك لا تحتجب عن خلقك إلا أن تحجبهم الآمال دونك، أو (تحجبهم الأعمال السيئة)**..» في بعض النسخ.

فيا أيها الأخ الطالب للإقبال على الله!.. والمتمني لهذه المرتبة السنيّة، استمع مني مقالة ناصحٍ لك، مقتبسة من مشكاة أهل البيت عليهم السلام لا سواهم، لأن من شذّ عنهم شذّ إلى النار وهي:

إنك بعد أن علمت أن المطلوب من العبد التخلّق بالأخلاق الكريمة التي بشرفها نسبت إلى الربّ، ربّ العزّة، فقد ورد عنهم: «**تخلّقوا بأخلاق الله**»[(١)].

وهي أخلاق محمد صلّى الله عليه وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين وشيعتهم.

واعلم أنّ قوام ذلك المعنى ونظامه إنما هو الجلوس على بساط الاستقامة، ومجانبة الإفراط والتفريط، فتقرّب إلى الله تعالى بما تيسّر لك من الطاعات، واجتناب ما يكرهه من السيئات.

واجعل بناء أمرك على عدم المسامحة والمماهلة في جزئي ولا كلي، فكل ما تعلمه راجحاً من الأمور المعلومة الرجحان اجعل همك في فعله، ولو كان جزئياً حقيراً في نظرك، وكل ما تعلمه بعدم

---

(١) شرح الأسماء الحسنى للسبزواري: ج٢، ص٤١.

الرجحان من الأمور فاجعل همك في تركه واجتنابه، وإن كان جزئياً حقيراً في نظرك.

ولا تجعل بناء أمرك على التسامح والتساهل لا في جزئي ولا كلي، بل ليكن أمرك مبنياً على الضبط والإتقان.

وإياك أن تتعلق بالإكثار من الأعمال من دون ملاحظة الضبط والإتقان، فإنّ أمراً واحداً تتقنه وتضبطه وتوقعه على وجهه على وفق الوضع المراد، ينتج الألوف من الأعمال الحسنة، لا على وجه الضبط والإتقان، بل الآلاف الكثيرة من الأعمال الحسنة غير المتقنة، لا تنتج نتيجة واحدة من الأعمال المتقنة المضبوطة، بل لا نسبة بينها عند أهل المعرفة والحكمة(١).

لا أقول لك: لا يقع منك الإخلال بجزئي ولا بكلّي، حتى تستعظم هذا المعنى وتقول: أنّى لي به، وأنا أنا.

بل أقول لك: لا تجعل بناء أمرك على الإخلال بجزئي

(١) هذه صورةٌ من الواقعية عند المؤلف.. فإنه يحاول أن يرفع بمستوى السالك إلى مرتبة الربط بين الأسباب والنتائج، وأنه لا ينبغي أن يقوم العبد بفعلٍ مبتورٍ عن الهدف الذي يسعى إليه، ألا وهو تحقيق العبودية الشاملة لله رب العالمين.. فالفعل الكثير الذي لا يحقّق الهدف لا قيمة له، كما لو كان رياءً، أو مزاحماً لواجب أهم، أو موجباً للغرور والعجب، أو داعياً لنفرة النفس من أصل الطريق.... (المحقق).

مسامحة ومساهلة، فأما إذا وقع منك الإخلال بأمرٍ لغلبة الهوى، ومخادعة النفس والشيطان، فذلك أمر آخر، وذلك من شأن غير المعصوم، فمقصودنا توطين النفس على عدم المسامحة والمساهلة.

فهذه الجزئيات من الشرع عند المواظبة عليها، وترك التسامح والتساهل فيها، تفيد الترقّي والوصول إلى المقامات الرفيعة العالية، فإن الله سبحانه قد جعلها بإذنه مفاتيح تلك الخزائن، ومن قبض مفاتيح الخزائن بيده استغنى وفاز فوزاً عظيماً.

ولولا خشية الإطناب لأوضحت إيضاحاً شافياً، وأكثرت الشواهد عليه، وهو حقيق بذلك، فإنه أتقن وأضبط باب يُفتح منه ألف باب من الحكمة الإلهية، وعسى أن نزيده بياناً في الأبواب الآتية إن شاء الله.

الباب الثاني

في رجحان الخوض في علم الأخلاق وصرف برهة من العمر فيه

اعلم أنه اشتبه الأمر على جملة من الصلحاء الأبرار، والإخوان الصافين من الأكدار، من أهل المجاهدة للنفس الأمّارة بالسوء، فإنهم لمّا رآهم الشيطان (لعنه الله) في مقام المجاهدة للنفس ـ الذي هو أفضل الجهاد حتى سمّاه النبي ﷺ (الجهاد الأكبر) ـ أراد أن يخدعهم عن ذلك، فألقى في روعهم شبهة عظيمة من شبهه.

وهي: أنّ ملاحظة المواعظ والنصائح والتذاكر بها وطلب العثور عليها والتدبّر لها ـ ما هو قوام علم الأخلاق ـ أمرٌ لا راجحيّة فيه.

فإن مع ما نرى من أنفسنا من العمل بخلاف ما نعلم، يكون وبالاً وزيادة في إقامة الحجة على العبد، فيكون التغافل والتناسي مع هذا الحال أحق وأحرى، فإنّ ذنب العالم ليس كذنب غير العالم، وأنه كلما قلّ علم الإنسان واطلاعه على التحذيرات، وأنواع

التهديدات يكون أقلّ امتراء، وأقرب إلى المعذورية، وأنه ليس من لا يعلم كمن يعلم.

وإني لمّا سمعت منهم هذا المعنى، وعلمت أنه من خدع الشيطان الرجيم (لعنه الله) نبّهتهم على رواية رواها الشيخ الحرّ في ـ الجواهر السنية في الأحاديث القدسية ـ وفيها قمع هذه الشبهة من أصلها، وإبطالها من رأسها.

ومعنى الرواية أن الله سبحانه يقول: لا تقولوا: نخاف أن نعلم ولا نعمل، ولكن قولوا: نعلم ونرجو أن نعمل، فإني ما أتيتكم إلا وأنا أريد أن أرحمكم بها[١].

وهذا الخطاب الإلهي أقمع هذه الشبهة، ولولا مخادعة الشيطان لما كان محلاً للاشتباه حتى يحتاج إلي الإزالة، ولكن كفى بهذا البيان الإلهي قامعاً. . ونزيدك بياناً تعرف به جلية المسألة في العلم والعمل وثمرة كل منهما، ويتجلّى لك ما وضع لأجله الباب من رجحان هذا العلم وثمراته فنقول: إنه من المعلوم أنه لا نفع للعلم بدون العمل، كما لا نفع للعمل بدون علم، ولكن العبد مأمورٌ بكل منهما، وكل واحد منهما يؤكد صاحبه ويقوّيه.

فمن اتخذ العلم لا للعمل بل ليفتخر به، ويستر بمحاسن العلم وشيوع الجمال وبهائه بين الناس، قبحَ أفعاله وخصاله القبيحة، فلا

(١) الجواهر السنية ـ باختلاف.

شكّ أن هذا قرين إبليس اللعين، وعلمه وبالٌ عليه، وعلى غيره، وإنّ أهل النار يتأذّون به، وهو من الذين يحملون أثقالهم، وأثقالاً مع أثقالهم، وهو شيطان في صورة إنسان ـ نعوذ بالله منه ـ.

وكذا من اتخذ العلم عادة اعتادت عليها نفسه[١] ورياء وسمعة بهذه الصورة الممدوحة بين الناس من دون بصيرة ولا معرفة، فهذا حمار مربوط ملحق بالأول، وإن كان أقلّ منه ضرراً على العباد.

وأمّا من كان عاقلاً فهماً، وطلب ما به صلاح نفسه وسعادته في داريه، وهو المتوجّه إلى الله الطالب ما عند الله، وهو المقصود بخطابات هذا الفن لتربيته وترقيه فيما هو طالب له، فليعلم أنه كلما انفتح له باب من العلم سهل له العمل به، وزاده نشاطاً ورغبةً فيه، وكلما عمل بما علّمه الله من العلم أورثه ذلك علم ما لم يعلم، وزاد

(١) إشارةً إلى نقطةٍ مهمةٍ لا ينبغي أن يغفل عنها الخواص. . فإنّ العلم ليس إلا انكشافاً للواقع في الذهن في أفضل حالاته. . وإلا فإنّ حالات عدم المطابقة والجهل المركب هو الشائع في كل العلوم. . وعليه فإنّ احتراف تخزين صورة الواقع في الباطن والتلذّذ بذلك ـ كمن يستلذّ بجمع الكتب في الظاهر ـ لا يمكن أن تُعدّ عملية مقدّسة بنفسها، توجب قرباً إلى الحقّ المتعال، وعليه فإنّ العلم المتراكم بلا عملٍ قد يتحوّل مع الغفلة إلى شغلٍ شاغلٍ تألفه النفس، فلا يعود العبدُ يفكّر بعدها بالعمل، شغلاً بما فيه من الانكشافات الذهنية التي لا أثر لها في الخارج. . (المحقق).

في علمه، كما في أخبار أهل البيت عليهم السلام حيث قالوا: إنه من عمل بما علم أورثه علم ما لم يعلم.

فيكون في الحقيقة عمله نوعاً من العلم، حيث إنه مورث له ومحصل له، فيدخل تحت طلب العلم الذي تواترت الروايات بفضله ومدحه.

كما أنّ علمه وتعلمه وتعليمه من أفضل أفراد العلم، فعند ذلك تتمّ للعبد السعادة بالعلم الباعث على العمل، والعمل المنبعث عن العلم، والسعادة وإن تمّت بالمجموع المركب من العلم والعمل، إلا أن أفضل الجزأين عند الله إنما هو العلم، وبه يقع التفاضل بين الأولياء.

قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «**مسحة من المعرفة خير من كثير من العمل**»، وما هما إلا كالنيّة والعمل، والفضل للنيّة.. وكالروح والجسد، والفضل للروح.

وفيما ذكرناه كفاية لمن طلب الهداية، والله ولي التوفيق.

الباب الثالث

في بيان أن اللّه خلقنا للسعادة الدائمة، أعدّها لنا وأعدّنا لها

اعلم أن الإنسان خُلق للحياة الدائمة والعيش السرمدي، وعمر الآخرة لا نهاية له، وقد جعل الله هذه الدنيا مزرعةً للآخرة، ورتّب الجزاء في الآخرة على الأعمال في هذه الدنيا، فكان تأهل العباد لتلك السعادة الأبدية بهذه الأعمال الدنيوية(١).

---

(١) ان الالتفات إلى قِصَر العمر في الحياة الدنيا، لمن دواعي اليقظة والحركة للسالك، فإن الإنسان بطبيعته يحبّ نفسه، ويحبّ لها النفع والخلود، وإن اشتبه في تشخيص مصاديق النافع والضارّ، كما هو الواقع خارجاً..
وعليه فإن استيعاب حقيقة قِصَر الحياة، وإن اللامحدود يتحدّد سعادةً وشقاءً بهذا العمر المحدود، مما يجعل كل آن فيه يقابل اللامحدود.
ومن المعلوم أن هذه المقابلة الوجدانية ـ وهي مدعومة بالشرع والنقل ـ يحوّل الإنسان إلى موجودٍ حريصٍ على كل لحظةٍ من حياته، أضف إلى حرصه لانتقاء أفضل الأعمال التي يملأ بها هذا الوقت القصير، الذي سيحدّد مصيره الأبدي في الجحيم أو النعيم!.(المحقق).

ولا ريب أنّ هذه الأعمار القصيرة، والمدة القليلة، لو استغرقت بالعبادة بحيث لم يعص الله فيها طرفة عين، ولم يصرف مقدار نفس من الأنفاس إلا في طاعة الله، فهي مع ذلك قاصرة وناقصة بالبداهة والضرورة عن الأهلية للمقابلة، ومقام المعارضة والمجازاة.

فلا بدّ بمقتضى الرأفة الإلهية والرحمة الربانيّة، أن يفتح لهم أبواباً من أبواب كرمه، يؤهلّهم بها لمقام الجزاء بما لا انقضاء له ولا فناء، إذ كل نعمه ابتداء، وكل إحسانه تفضّل.

فأول ما تفضّل به عليهم بجوده وكرمه، أن جعل أعمالهم غير منقطعة بانقطاع آجالهم، ولا منتهية بانتهاء مددهم، بحيث جعلها يمكن أن تكون منطبقة على عمر الدنيا، ومستغرقة لأيام العمل ووجود العاملين، وذلك بأن جعل من أحكام دينه التي حكم بها، أنّ من سنّ سنّة هدى فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، كما أنّ من سنّ سنّة ضلالة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة[١].

وكذلك جعل من أحكامه أنّ الوالدين شركاء مع أولادهما فيما يعملون من أعمال الخير، بمقتضى التسبّب والعلية للوجود، وهذه سلسلة غير منقطعة.

---

(١) مجموعة ورام: ج٢، ص٢٣٦.

وكذلك جعل ثواب بعض الأعمال أن يخلق منها ملائكة يعبدون الله إلى يوم القيامة، ويكون ثواب عبادتهم لصاحب العمل.

وكذلك فتح لهم باب التنزيل، فنزّل العمل ليلة واحدة بمنزلة العمل في ألف شهر، بل أخبر الله سبحانه فقال: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾[١].

وجعل تفكّر ساعة بمنزلة عبادة ستين سنة[٢] وفيه: سنة[٣]، على ما في بعض الروايات.

وجعل مبيت ليلة عند أمير المؤمنين عليه السلام، تعدل عبادة سبعمائة سنة.

وجعل قضاء حاجة المؤمن يعدل عبادة تسعة آلاف سنة، صائماً نهارها قائماً ليلها[٤].

---

(١) سورة القدر: الآية ٣.

(٢) البحار ج ١٧، ص٣٢٧.

(٣) ورد في المصدر (تفكّر ساعة خير من عبادة سنة).. وأما عبادة ستين سنة فقد روي بالنسبة لمن مرض يوماً بمكة (المستدرك ج٩ ، ص٣٦٤) ولمن تعلّم حديثين اثنين ينفع بهما نفسه أو يعلّمهما غيره فينتفع بهما (البحار: ج٢، ص١٥٢) ولمن عدل ساعة (جامع الاخبار: ص١١٩) ومن مرض ليلة فقبلها بقبولها، معنى القبول كما ذكره عليه السلام: «لا يشكو ما أصابه فيها إلى أحد» (مشكاة الانوار: ص٢٨١). (المحقق).

(٤) البحار: ج٧٤، ص٣١٥.

وجعل صيام ثلاثة أيام من كل شهر، قائمة مقام صيام الدهر.

كل ذلك تعطفاً منه على عباده المؤمنين، وتفضلاً ليؤهلهم لأن يوصلوا إلى رتبة استغراق عمر الدنيا بالطاعة، حتى يكون لهم شوق التأهل بهذه المرتبة النفيسة بجوده وكرمه.

ثم ذلك قليل في جنب ما يريد أن يؤهلهم عن استغراق مدة الأمد والسرمد بالعبادة والطاعة له عزّ وجلّ، فأكمل لهم الامتنان ليتمّ لهم الإنعام، بأن فتح لهم باب الجزاء على النية التي هي خير من العمل، فجعل نيات المؤمنين أن لو خُلّدوا في الدنيا لداموا على طاعتهم لله عزّ وجلّ، فأثابهم على ذلك ثواب الدائمين على طاعته، وجعل جزاءهم على هذه النيات الخلود في الجنة.

كما أن الكفار بسوء نياتهم، وأنهم لو داموا لداموا على معصيته، جعل جزاءهم الخلود في عقابه.

فيا أيها الأخ المسترشد!.. اعلم أنّ أعمالك مبنيّة على الدوام لا على الانقطاع، وإن كنت تراها منقطعة، ففي بعض الأخبار: إن السعيد من ماتت سيئاته بموته.

يعني من سعادته أن لا يُعمل بها بعده، وإلا فإذا عمل بها اقتداء به واقتداء بمن اقتدى به، كان عليه وزرها إلى يوم القيامة.

فالمعصية والعياذ بالله مقتضاها التسلسل... إلا أن يتعطف الله بمحوها وإزهاقها.

فاحذر كل الحذر من المعاصي!.. فقد تؤثر في الأعقاب وفي أعقاب الأعقاب، وارغب في الطاعات!.. فإنّ ما كان لله ينمو، ومن نموه أن يؤثر بعده إلى آخر الدهر، وفي الأعقاب وأعقاب الأعقاب إلى يوم القيامة، فتيقّظ ولا تكن من الغافلين[١].

---

(١) إن كتب القوم جميعاً لا تخلو من هذه الوصية، فإن العاكف على الذنب ولو كان صغيراً لا استعداد له للسير في هذا السفر، الذي يحتاج في أصله أن يكون المسافر فيه مقبولاً لدى مولاه.. فإن النجاح في هذا الطريق يتوقف على النفحات الإلهية الآخذة بيد العبد، وهي لا تتأتّى لمن يتعرّض لسخط مولاه صاحب تلك النفحات، ومن المعلوم أن الذنب ـ وإن كان صغيراً ـ إلا أن الذي أذنبنا بحقّه كبير، بما يجعل المعصية بين يديه سوء أدبٍ عظيم، يوجب الخجل والوجل بعد الالتفات إليه.. ومن هنا كان ديدن جميع من سلكوا هذا الطريق هو الاستغفار المتواصل، لتجديد العهد بالربّ الذي ما عرفناه حقّ معرفته، وما عبدناه حقّ عبادته.. وأما استغفار الأنبياء والأوصياء عليهم السلام فإنما هو لإظهار التذلّل والتعظيم، بالإضافة إلى تبدّل حالاتهم في بعض الأحيان من الأعلى إلى العالي، وهذا كافٍ لأن يوجب لهم طلب الاستغفار دائماً.(المحقق).

الباب الرابع

في ذكر بعض الطرق إلى الله تعالى

اعلم أنّ الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق[1] فلكل أحد من الخلق طرق إلى الله بعدد أنفاس كل الخلائق، والشقي من ضاقت عليه رحمة الله التي وسعت كل شيء.

واعلم أنه لا طريق أنجح من حسن الظن بالله، فإنه في ظنّ عبده المؤمن، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

---

(١) هذه من الحقائق التي تزيد العبد بصيرة في سيره إلى الله تعالى، فليست هنالك معادلة ثابتة في جزئيات السير إليه، فلكل زمان، ومكان، وفرد، وظرف، موجباته وموانعه.. فلذلك تعدّدت السُّبل، وإن اتّحد الصراط، إذ جمع الأول وأفرد الثاني في القرآن.. ومن هنا لا ينبغي التأسي بخصوصيات السالك الفردية ـ وإن كان واصلاً ـ لأن لكل فردٍ ظرفه وتكليفه.. ومعرفة السبيل الأنسب من بين السُّبل، شاغل لبال السالكين جميعاً.. فليست هناك مشكلة في الحكم الشرعي الإلزامي لإمكان معرفة ذلك من خلال ما ورد في الفقه، وإنما المشكلة كامنة في الأحداث والوقائع الشخصية التي لا دور للفقه فيها، كموارد تزاحم الأهم والمهم، ومن هنا يحتاج السالك =

والناس قد عوّدوا أنفسهم بمقتضى تسويل النفس والشيطان على سوء الظنّ بربّهم، ومسارعة أذهانهم إلى التفاؤل بالسوء واليأس من الفرج بمجرد مشاهدة آثار الابتلاء، والتخوّف من شدّة البلاء، متيقنين في ذلك، فيقعون فيما فرّوا منه، ويجري عليهم ما تفاءلوا به من البلاء، فإنه والعياذ بالله نوع من سوء الظنّ.

وقد عرفت أنه بسوء الظنّ يتأهل العبد لأن يعامل بسوء ظنه، إلّا أن يعفو الله سبحانه.

والنبي ﷺ كان يحب التفاؤل بالخير، ويكره الطِّيرة[1]..

والطِّيرة على حسب ما يراها صاحبها، إن رآها شديدة كانت شديدة، وإن رآها خفيفة كانت خفيفة، وإن لم يرها شيئاً لم تك شيئاً[2]، كذا في خبر في (روضة الكافي).

= إلى بصيرة نافذة في معرفة السبيل الأقوم في مقابل السُّبل المستقيمة الأخرى، وهي إما أن تحصل: بالإلقاء في الروع والإحساس اليقيني بذلك، أو بالتسديد القهري بوضعه على الطريق ولو مع عدم الإحساس بذلك، أو عن طريق إشارات أهل المعرفة الذين فُتحت لهم الأبواب، فناجاهم الله في فكرهم، وكلّمهم في ذات عقولهم فاستصحبوا بنور يقظة في الأسماع والأبصار والأفئدة (النهج: ج٢، ص٢١١). وقد قال النبي ﷺ: «**اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله**» (بصائر الدرجات: ص٣٧٥). (المحقق).

(١) البحار: ج٩٢، ص٢.

(٢) روضة الكافي: ص١٩٧.

فيجب على المؤمن المقتفي آثار أهل البيت، أن يعوّد نفسه على حسن ظنّه بربه، فيرجو من الله بالقليل الكثير، فهو سبحانه الذي يُعطي الكثير بالقليل، وكلّ ما تؤمله منه وتظنّه به سبحانه وتعالى من أصناف الخير وكرمه فوق ذلك، وظنّك له نهاية، وكرمه سبحانه لا نهاية له، وهو سبحانه قد أخبرك بأنه في ظنّك الحسن، وعند ظنّك الحسن، وقد قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «**من ظنّ بك خيراً فصدِّق ظنَّه**»[1].

فإذا كان حكمه على عباده، الجاري على لسان أوليائه، أن يصدقوا ظنّ من ظنّ بهم خيراً ويحقّقوا ظنّه، فهو سبحانه عزّ وجلّ أولى بذلك.

بل يُستفاد من الأخبار وتتبع الآثار، أن كل من يُحسن الظنّ بشيء يصدق الله ظنّه، ويجري له الأمر على وفق ظنّه الحسن، وكأنه من أفراد حسن الظنّ بالله، إذ معنى ظنّ الخير بهذا الشخص يرجع إلى الظنّ بأن الله أودع فيه ذلك الخير للمقدمة المطوية المعلومة من أن كل خير من الله، فالله سبحانه يصدق هذا الظنّ.

وقد جاء خبر صريح بأن من ظنّ بحجرٍ خيراً جعل الله فيه سرّاً، فقال له الراوي: بحجر!.. فقال له الإمام عليه السلام: أو ما ترى الحجر الأسود[2].

(١) البحار: ج٧٤، ص٢١٢.
(٢) لم أرَ الحديث في المصادر التي كانت مُتاحة لدي.. والرواية على =

فيُستفاد من هذا أنّ الله سبحانه وتعالى، يصدق الظنون الحسنة من المؤمنين من بعضهم في بعض، ويحقّق لهم ذلك.

ومن ذلك تصديق شهادة من يشهدون للميت بأنهم لا يعلمون منه إلا خيراً، للتنبيه على حسن الظنّ، بل على عدم العلم بغير الحسن.. وقد ورد الحديث بأن الله يجيز شهادتهم، ويغفر لهم وله ما يعلم لما لا يعلمون.

فمقتضى حسن الظنّ أن يجريه الله للظانّ ولمن ظنّ به الخير، إلا أن يمنع مانع قوي من جريانه في من ظنّ به، فيجريه الله للظانّ.

كما في بعض الأخبار أنّ الرجل قد يكرم رجلاً على أنه من أهل الخير، فيدخله الله بذلك الجنة، وإن كان في علم الله أن ذلك

= فرض الصدور، تشير إلى أن عناصر هذا الوجود كلها قابلة لتلقّي الفيض الخاص من المولى.. فإن الموجودات وإن كانت متساوية المثول بين يديه، إلا أن المبدع لها ـ ولأمور لا يعلمها إلّا هو ـ يختصّ بعضها بلطفه كالبقاع الشريفة، والأزمنة المباركة، فتتحوّل بعد التشريف الانتسابي إلى شأن من شؤونه، فتتميز في خواصها وآثارها عمّا يشابهها من الموجودات.. فهذا قميص يوسف يُلقى على وجه أبيه فيرتدّ بصيراً.. وهذا التابوت فيه سكينة من ربّهم.. وهذه قبضة من أثر الرسول تعمل الأعاجيب.. وهذا الحجر الأسود ـ كما في الرواية ـ جعلها الله تعالى يمينه في الأرض.. هذا كلّه في عالم الجمادات، فكيف إذا تحقّق الأمر في عالم الناطقات، وهي النفوس التي استسلمت لربّها عن رضىً واختيار.. (المحقق).

المكرم من أهل النار، فهذا مما منع فيه المانع القوي من إجراء الظنّ في من ظنّ به فأجري للظانّ.

والحاصل: أنّ من امتثل ما أمر به من حسن الظنّ لإخوانه المؤمنين لا يخيب، إذ هو إما أن يصدق ظنّه ويقلب الأمر على وفق ظنّه برحمة الله، أو يجري له ظنّه في حقه، ولا يضرّه تخلّف ذلك في المظنون به الخير.

وهذا باب عظيم في حسن الظنّ بالمؤمنين، ولعله على هذا ابتني الأمر في قبول صلاة الجماعة، فإنّ المأمومين أحسنوا الظنّ بالإمام، وجعلوه واسطة بينهم وبين الله في قبول صلواتهم، فأعطاهم الله ذلك فقبل صلاة الجميع بحسن الظنّ به.

إلى غير ذلك من موارد حسن الظنّ، كالذي يشرب من سؤر المؤمن تبركاً به، وكماء زمزم فإنه لِمَا شُرب له، قال الشهيدان: وقد شربه جملة من الأكابر لمقاصد دينية ودنيوية فنالوها[١].

فلا تغفل عن أخذ حظك من حسن الظنّ.

وقد ورد في الدعاء جعله من أفضل الأرزاق التي تطلب، فقال: «**اللهم ارزقني اليقين، وحسن الظنّ بك**»[٢].

(١) شرح اللمعة الدمشقية: ج٢، ص٣٢٩.
(٢) البحار: ج٩٥، ص٩٥.

وقد ورد في الحديث ما هو أبلغ من ذلك، وهو أنّ الله يجيز دعوى حسن الظنّ وإن كانت كاذبة.

فعن الصادق عليه السلام قال: «**إذا كان يوم القيامة جيء بعبدٍ فيؤمر به إلى النار فيلتفت، فيقول الله سبحانه وتعالى: ردّوه.**

فلما أتى به قال له: عبدي لِمَ التفتّ إليّ؟.

فيقول: يا رب ما كان ظنّي بك هذا!.

فيقول الله جلّ جلاله: فما كان ظنّك؟.

فيقول: يا ربّ!.. كان ظنّي بك أن تغفر لي وتسكنني برحمتك جنتك.

قال: فيقول الله جلّ جلاله: يا ملائكتي، وعزتي وجلالي، وآلائي وبلائي، وارتفاعي في مكاني، ما ظن بي هذا ساعة من خير قط، ولو ظنّ بي ساعة من خير ما روّعته بالنار، أجيزوا له كذبه وأدخلوه الجنة» انتهى الحديث[1][2].

---

(١) الجواهر السنية: ص٢٧٠.

(٢) إنّ هذه الرواية من الروايات التي تبعث الأمل الكبير في النفوس.. فانظر إلى هذه الرحمة المستغرقة لأدنى القابليات التي تُدعى حُسن الظنّ ادّعاءً، فكيف بمن يدّعيه صدقاً؟!.. وكيف بمن يمارسه تطبيقاً في الحياة الدنيا؟!.. ونرجع فنقول: كَم مِن الذين يلتفتون إلى مثل مقالة ذلك العبد يوم القيامة؟.. ولو التفت إليها جميع أهل المحشر لنجوا بذلك!.. ولكنه تعالى هو الذي يلقّن العبد حجّته يوم لقائه، =

فتأمّل فيه ترى ما لا يوصف، وبهذا الحديث الشريف وملاحظة أمثاله من مظان المواهب الإلهية، والنفحات الربانية، يتقوّى جانب من أن يكون ما عندنا من الظنون الحسنة، والآمال بمواهب ذي الجلال، مندرجة تحت حسن الظن بالله، إذ هي إن لم تكن منه فلا أقلّ من أن تكون من أفراده الادّعائية، وقد عرفت أنه بكرمه يجيزها ويعاملها معاملة الأفراد الحقيقية، وحكمه في الدارين واحد ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[١].

واعلم أن حسن الظنّ ليس مقتضاه الخلود إلى الراحة، وترك العمل معلّلاً بحسن الظنّ بالله، فإن هذا من خدع الشيطان الرجيم ـ أعاذنا الله منه وجميع المؤمنين بمحمد وآله الطاهرين ـ بل مقتضاه الانجذاب إلى ما عند الله، وشدة الرغبة في مواهب الله، فإن من أنس بمواهب الله جذبه الطمع، وهانت عنده الشدائد، ومن عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل[٢].

= لما رأى منه في دار الدنيا ما يوجب له هذا اللطف في ذلك اليوم العصيب. (المحقق).

(١) سورة الملك: الآية ٣.

(٢) وهذا هو الزلل الذي وقع فيه الجاهلون، فأساؤوا إلى الصادقين من أولياء الله تعالى وذلك بإلقاء الكلّ على الناس والاستئكال بالدين، وترك السعي لأمور المعاش، وكأنّ على أهل الدنيا السعي لتأمين عيش أهل الآخرة... والحال أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يمارس بيديه صنوف المعاش، وهو العبد المراقب الأول لربّه بعد أخيه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

وعن مولانا الرضا عليه السلام قال: «**إنّ الله أوحى إلى داود** عليه السلام **قال: إنّ العبد من عبادي يأتيني بالحسنة فأدخله الجنة.**

قال: يا ربّ، وما تلك الحسنة؟.

قال: يفرّج عن المؤمن كربة ولو بشقّ تمرة.

فقال داود عليه السلام: **حق لمن عرفك أن لا ينقطع رجاؤه منك**»(١). انتهى.

فإذا كان عزّ وجلّ يعطي هذه الجنة العظيمة التي عرضها السماوات والأرض بشقّ تمرة، وفي بعض الروايات أنه يحكم بالجنة بشقّ تمرة.

فبالله عليك كيف يسوغ ترك المعاملة مع هذا الكريم، والتغافل عن معاملته طرفة عين؟.. وبأي شيء يستبدل عنه؟.. ومن فاتته لحظة لم يُقبل فيها على الله فأي شيء يكون عوض ما فاته؟!.. هيهات!.. هيات!.. لقد فاته شيء لا عوض له، وغبن غبناً لا جبر له.

ومن أجل هذا المعنى وشدة رأفة الله بعباده المؤمنين، جاءت الشريعة الغرّاء بترتيب المثوبات العظيمة على حركات المؤمنين وسكناتهم، وحتى علّم علي بن الحسين عليه السلام شيعته الدعاء بقوله:

---

(١) العيون: ج١، ص٣١٣، الجواهر السنيّة: ص٧٩.

اللهم!.. اجعل همسات قلوبنا، وحركات أعضائنا، ولمحات أعيننا، ولهجات ألسنتنا في موجبات ثوابك»[١].

وقال عليه السلام في بعض أدعيته:

«وأستغفرك من كلّ لذّةٍ بغير ذكرك»[٢].

فمراد الله سبحانه في عباده المؤمنين، أن لا يخسروا خسراناً لا جبر له بالغفلة عن معاملته، وفقد أجرته طرفة عين.

ولهذا جعل الطرق إليه بعدد أنفاس الخلائق بحيث إنّ من شرب الماء وذكر الحسين عليه السلام وأهل بيته ولعن قاتله، كتب الله له مائة ألف حسنة، ومحى عنه مائة ألف سيئة، ورفع له مائة ألف درجة، وكان كأنما أعتق مائة ألف نسمة، وبعثه الله يوم القيامة ثلج الفؤاد[٣].

أترى صاحب هذا العطاء، والمُعدّ لهذا الجزاء يرضى أن يضيع على عبده ـ المحتاج إليه وهو الغني المطلق ـ نفساً من أنفاسه؟!.

حاشا وكلا!.. بل يريد من هذا العبد المسكين أن يكون مقبلاً على ربه، حيث إنه لا خير إلا عنده، ولا شرف إلا في الإقبال إليه، فإذا أقبل هو على الله أقبل هو عليه، وإذا أقبل عليه عامله بفضله

(١) الصحيفة السجادية: ص٦٠.

(٢) المناجيات الخمسة عشر.

(٣) الكافي: ج٦، ص١٩٣.

وكرمه وهداه لأن يقصد بكل خطراته وحركاته وسكناته ونومه ويقظته رضاء ربه، بما يقتضيه كرمه وجوده ومنّه.

ومنه ما عن الباقر عليه السلام قال: إنّ الله أوحى إلى داود عليه السلام:

«بلّغ قومك أنه ليس من عبدٍ منهم آمره فيطيعني، إلا كان حقّاً عليّ أن أطيعه وأعينه على طاعتي، وإن سألني أعطيته، وإن دعاني أجبته، وإن اعتصم بي عصمته، وإن استكفاني كفيته، وإن توكّل عليّ حفظته من وراء عوراته، وإن كاده جميع خلقي كنت دونه..» انتهى[1].

وكذلك تأتي رأفته البالغة ورحمته الواسعة، أن يبالغ في تحذير عبده المسكين عن التخطي إلى ما لا يعنيه فضلاً عما يضرّه.

وفي بعض الخطابات القدسية على ما في (الجواهر السنية):

«يا بن آدم!.. إذا وجدت قساوة في قلبك، وسقماً في جسمك، ونقصاً في مالك، وحريمة في رزقك، فاعلم أنك قد تكلّمت فيما لا يعنيك[2].

وهو الفضول من الكلام، فضلاً عن المحرّم فهو أضرّ على الإنسان من السمّ، إذ منتهاه أن يؤثّر في الجسم، والفضول من الكلام يؤثر قساوة في القلب، والنقيصة في المال، والحرمان في

---

(١) الجواهر السنية: ص٧٤.

(٢) المصدر نفسه: ص٦٦.

الرزق، مع السقم في الجسد، فكيف يرضى له الرب الرؤوف بأن يعرّض نفسه لهذه المهلكة العظيمة.

بل ورد أنّ الله سبحانه يحاسب العبد على فضول النظر، كما يحاسبه على فضول الكلام(١).

فمن أجل أنه لا يريد أن يضيّع على عبده البائس المسكين نظرة من نظراته، جعل له النظر إلى وجه العالم عبادة، والنظر إلى الكعبة عبادة، والنظر إلى ذرية رسول الله ﷺ عبادة، والنظر إلى المخلوقات بعين الاعتبار عبادة، وأي عبادة!.. فإنه التفكير الذي ساعة منه تعدل عبادة ستين سنة ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾(٢).

وعن الصادق جعفر بن محمد بن علي، عن أبيه، عن آبائه عليهم السلام، عن النبي ﷺ قال:

«**أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود!.. وكما لا تضيق**

---

(١) وهذا هو مقتضى المراقبة الدقيقة للسلوك في أرقى مراتبه، فإنّ لحظات العيون ممّا لا يعدّ عند العامة فعلاً ليترتّب عليه الحساب، إذ إن العين تبصر ما لم تغمض سواء أراد صاحبها أم لم يُرد.. ولكن المراقب لنفسه يحوّل هذه العملية اللاإرادية إلى حالة شعورية.. فلا يسلّط نظره إلى ما ليس مأموراً به، فكيف إذا كان منهيّاً عنه؟!.. بهذا الحديث وأشباهه يعلم أن الطريق إلى الله تعالى كالصراط يوم القيامة أحدّ من السيف.. ومن هنا صعب الوصول إلا بفضل الله ورحمته. (المحقق).

(٢) سورة البقرة: الآية ١١٥.

الشمس على من جلس فيها، كذلك لا تضيق رحمتي على من دخل فيها، وكما لا تضرّ الطِّيرة من لا يتطير، كذلك لا ينجو من الفتنة المتطيّرون..» انتهى[1].

وهذا الخطاب الإلهي القدسي من أكبر وأعظم الشواهد على ما أصّلناه من أن المتطيّر لسوء ظنه بربّه لا ينجو من الفتنة، فيقع في الهلكة، ومن لا يتطيّر لحسن ظنّه بربّه لا تضرّه الأشياء التي يُتطيّر منها، وتُدفع عنه ببركات حسن الظن بالله.

ومن دخل في رحمة الله بالانقطاع[2] إلى أخبار أهل البيت عليهم السلام، واقتفى آثارهم لم تضق عليه، بل لا تزال تتسع وتنفتح

(١) الجواهر السنية: ص٧٧.

(٢) إن تعبير المصنّف في هذا الموضع تعبير رائع.. فمن ناحية جعل الدخول إلى أخبارهم من موجبات الرحمة الإلهية، فإن نفس الميل إلى أخبارهم والأنس بما ورد عنهم من علامات المسانخة لطينتهم، والاستعداد لتلقي الفيض منهم، وإلّا فإن النفوس الأجنبية لا تألف هذه الكلمات الصادرة ممن اتصلوا بعالم الغيب.. ومن ناحية أخرى أكّد على ضرورة الانقطاع إليهم، فكيف يهتدي إلى طريق الله الأعظم مَن لم يستوعب حقيقة الولاية الإلهية المتمثّلة في النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأوصيائه عليهم السلام؟!..إن هذه النفوس التي لم تفهم أكثر الحقائق بداهةً في عالم المعرفة ـ إذ ما نُودي بشيء مثلما نُودي بالولاية (الكافي: ج٢، ص١٨) ـ كيف لها أن تفهم دقائق السير إلى ربّ الأرباب؟!.. (المحقق).

له الأبواب التي كل باب ينفتح منه ألف باب، حتى يوصله إلى مقام انشراح الصدر بنور العلم والمعرفة، وهو من أفضل ما أثنى الله على نبيه ﷺ حيث يقول:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾(١).

فإذا مَنَّ الله عليه بالوصول إلى هذه الرتبة، فهو من الذين لا يصلهم بلاء الدنيا، ولا بلاء الآخرة، وبمعنى أنه لو أصابه نوع من البلاء فهو عند غيره بلاء، وبحسب نظر الناس، وإلا فهو عنده في جنب ما عرّفه الله من إيصاله إلى رضاء الله، وبحسب ما يطلب منه من المراتب السامية عند الله تعالى، من أكبر الملاذ وأهنأ العطاء.

ولذا كان بعض خواص الحسين عليه السلام من أهل الطف، كلما اشتد عليهم البلاء تشرق وجوههم، وتستبشر نفوسهم، رزقنا الله وإياكم هذه المقامات، وأين أبناء الملوك عن هذه اللّذات، وحسبنا الله ونِعْمَ الوكيل، ونِعْمَ المولى ونعم النّصير.

---

(١) سورة الانشراح: الآية ١.

الباب الخامس

في إيضاح عجز الإنسان من حيث هو

أيها الأخ الغافل عن إصلاح نفسه، والمتغافل عن حقيقة أمره!.. إنّ لك أيّها المسكين جهتين واعتبارين:

الجهة الأولى: من حيث نفسك وذاتك، ومن حيث أنت أنت، وإلى هذه الجهة غالب نظرك وملاحظتك، وأنت من هذه الجهة فانٍ مضمحل زائل لا قدر لك ولا قيمة ولا اعتداد بك، ولا مبالاة بك ولا احتفال، بل لست شيئاً مذكوراً.

والجهة الثانية: لك من حيث أنك متعلّق القدرة الإلهية، ومظهر العظمة الربانية، ومخلوق لهذا الخالق العظيم الشأن عزَّ وجلَّ، وبهذه الجهة صرت مرتبطاً بكل العالم من العرش إلى الثرى، ومن السماء السابعة العليا إلى الأرض السابعة السفلى، فضلاً عما بين المشرق والمغرب، وجميع من في أقطار الأرض.

فإن أنت فعلت بنفسك خيراً أثّرت في جميع العالم خيراً،

وبالعكس[١] فإن أشكل عليك ذلك، فإنّ لك مثالاً تحت العرش يعمل مثل ما تعمل، فإن عملت قبيحاً ألقى الله على مثالك ستراً وغطاه، لئلا تُفتضح عند أهل العرش.

وإن عملت حسناً أظهره الله لهم وهو معنى قوله: «**يا من أظهر الجميل وستر القبيح**» على ما رواه شيخنا البهائي في مفتاحه عن الصادق عليه السلام أنه قال:

«ما من مؤمن إلا وله مثال في العرش، فإذا اشتغل بالركوع والسجود ونحوهما فعل مثاله مثل فعله، فعند ذلك تراه الملائكة فيصلّون ويستغفرون له، وإذا اشتغل العبد بمعصية أرخى الله على مثاله ستراً لئلّا تطلع الملائكة عليها»[٢].

وكذلك لا شك أن أعمالك كل يوم، وكل صباح، وكل مساء،

(١) هذه العبارة على إيجازها، تكشف السرّ عن حقيقة تأثير بعض الأولياء في الأمور بإذن الله تعالى، بما لا يمكن إنكاره لكثرة وقوعه وتواتر نقله قديماً وحديثاً.. فإنّ العبد إذا صار محبوباً لمولاه، فإنّ شؤون ذلك العبد كلها محبوبة لديه، ومنها إرادته للشيء ودعاؤه، فإنّ الله تعالى ـ لشدّة حبّه له ـ يجعل إرادته الربوبية مطابقة لإرادة عبده، المستوجبة للإجابة لو خلا الأمر من الموانع.. ومن هنا جعل الله تعالى الإحياء ـ وهو من أعجب الأمور ـ منتسباً إلى المسيح عليه السلام بإذنه، وهذه هي المعادلة التي ترفع الاستغراب عمّا يقع من خرق للعادات في جميع الموارد التي صحّ فيها النقل.. (المحقق).

(٢) مفتاح الفلاح: ص١٥٦.

تُعرض على النبي ﷺ، وعلى الأئمة عليهم السلام، خصوصاً صاحب العصر ـ عجّل الله فرجه ـ ولي الأمر، فما كان منها حسناً سرّهم، حتى قال أحدهم: والله لرسول الله ﷺ أسرّ بالحاجة يقضيها المؤمن لأخيه من صاحب الحاجة(١).

ولا شكّ أنّ النبي ﷺ، وأهل بيته أقطاب العالم وأركانه، والعالم كله رعية، من الملائكة وغيرهم، فمن أدخل السرور على سلطان العالم فقد أثر في الرعية كلها سروراً، تبعاً لسرور الملك والسلطان، فيضجّ العالم بالدعاء لهذا العبد المحسن: سرّك الله كما سررتنا.

وإن أساء أساء النبي ﷺ، ولذا تجفّ الأشجار، وتفسد الثمار، وتقلّ الأمطار، وتغلى الأسعار.

وقد بان لك أيها المسكين!.. تأثير طاعتك ومعصيتك في كل العالم، فضلاً عن خصوص الملائكة الموكلين بك، وفضلاً عمّا تقدمت الإشارة إليه من تأثير الطاعة والمعصية في الأعقاب، وفي أعقاب الأعقاب، ومن وصول النفع لكل المؤمنين ممّن مضى وممّن بقي ممن يقول:

اللهم!.. اغفر للمؤمنين والمؤمنات حتى ورد: «**أن جميع**

---

(١) الكافي: ج٢، ص١٥٦.

المؤمنين والمؤمنات يشفعون لمن يقول ذلك ويقولون: هذا الذي كان يستغفر لنا»(١).

ورد في الأخبار: «**إنّ العالم يستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في البحار**»(٢).

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾(٣)... ولا يخفى أنّ من يكون مجتهداً مشهوراً ينتفع بتقليده مَن في المشرق ومَن في المغرب، كما ينتفعون بكتبه ومصنفاته، وسائر أنواع هدايته وإرشاداته في حياته وبعد وفاته.

فإذاً قد ظهر لك سريان تأثيرك في كلّ العالم من الجهة الثانية فيك، وكونك متعلّق القدرة الإلهية، ومظهر العظمة، فكيف يسوغ أيها المسكين فلتتك وتغافلك، ملتفتاً إلى الجهة الأولى التي لست بها شيئاً مذكوراً!.

ولقد صدق مولانا أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول:

دواؤك فيك ولا تبصر   وداؤك منك ولا تشعر
أتحسب أنك جرم صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر

---

(١) الوسائل: ج٤، ص١٥١.
(٢) الكافي: ج١، ص٣٤.
(٣) سورة غافر: الآية ٧.

وأنت الكتاب المبين الذي بآياته يظهر المضمر(١)

ولئن أهملت نفسك فما ربّك بمهمل لك، قال الله تعالى:

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾(٢).

فتيقّظ أيها الغافل!.. والحظْ الجهة الثانية التي صرت بها إنساناً، وكذلك سمّاك ربك، فإن كنت ترى نفسك من أهل الشقاوة، وعن السعادة نائياً، فاعلم أيها المسكين ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾(٣).

واحذر أن تكون شيطاناً في صورة إنسان، واعلم أنك إن اخترت لنفسك ذلك فقد أضعت توجّه العناية الإلهية إليك، وأفسدت العالم كله بفسادك، وكدّرت قلوب الأنبياء والمرسلين، والملائكة المقربين، وجميع أهل السموات والأرضين، وضجّت الأرض إلى الله من مشيك عليها، والسماء من استظلالك بها.

وورد أن الأرض تضجّ إلى الله من بول الأغلف أربعين صباحاً(٤).. وهو فعل مكروه من المكروهات فكيف بك؟.

وبالجملة يا مسكين أنت مبارز لله، وجميع من هو ملك لله

---

(١) ديوان أمير المؤمنين عليه السلام ص١٧٥.
(٢) سورة القيامة: الآية ٣٦.
(٣) سورة الرعد: الآية ٣٩.
(٤) البحار: ج١٠١، ص١١٠.

تعالى أعداء لك، فأين تذهب عن ملكه[١] وجميع مخلوقاته تطلب الإذن منه بالانتقام منك، فأنّى بمقاومتها كلها، وأنت الضعيف الحقير، ومن يؤويك وقد بارزته وحاربته، فلا مفرّ لك منه إلا إليه ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾[٢].

وكلّ من خاف من أحد هرب منه إلا الخائف من الله فإنه يهرب إليه، فإن أنت هربت إليه عزّ وجلّ فاستمع لما رواه الصادق عليه السلام عن جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الله عزّ وجلّ أنه يقول:

«لا أطلع على قلب عبدٍ، فأعلم فيه حبّ الإخلاص لطاعتي، وابتغاء وجهي، إلا تولّيت تقويمه وسياسته»[٣].

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الله عزّ وجلّ قال:

---

(١) إنها حقّاً لحقيقة مخيفة وهي ليست من المعاني الإنشائية التخيّلية، إذ أنّ كل ما في الوجود ـ ما عدا الإنسان ـ منقادٌ لله تعالى بطبعه، ومن المعلوم أنّ الشاذّ عن حركة الوجود في الطاعة محاربٌ لربّ العالمين، وهو الذي له جنود السماوات والأرض، وهل وظيفة الجند إلا امتثال أمر من هم جنودٌ مجندةٌ بين يديه؟!.. وعليه فإنّ بقاء العاصين في أمنٍ وسلامةٍ، إنما بتدخلٍ من الربّ الرؤوف في منع جنوده من الانتقام من أعدائه.. وما نار جهنم وإحاطتها بالكافرين إلا صورة من صور جنود الربّ، عندما يُؤذن لها في الانتقام، ومن هنا كان لسان حالها: هل من مزيد؟!..(المحقق).

(٢) سورة الذاريات: الآية ٥٠.

(٣) الجواهر السنية: ص١٣٣.

«إذا علمت أن الغالب على عبدي الاشتغال بي، نقلت شهوته في مسألتي ومناجاتي، فإذا كان عبدي كذلك فأراد أن يسهو حلت بينه وبين أن يسهو، أولئك أوليائي حقاً، أولئك الأبطال حقاً، أولئك الذين إذا أردت أن أهلك أهل الأرض بعقوبة زويتها عنهم من أجل أولئك الأبطال»[(١)].

انتهى هذا الحديث الشريف، أنظر إليه كيف اشتمل آخره على أن الله كيف يدفع العقوبة والهلكة عن أهل الأرض بوجود أولئك الأولياء، فنفس وجودهم صدقة عن العالم، حيث كان باعثاً على حفظهم من الهلكة.

وبالجملة فهذا العالم مرتبط بعضه ببعض، وهو بمنزلة الشخص الواحد إذا دخل ألم في عضو من أعضائه سرى إلى الكل، فإذا نزل ذلك الألم عن ذلك العضو فقد أراح الكل من ذلك الألم.

وورد في الحديث: «**أن العبد إذا حمد الله شمله ذلك الدعاء من كل المصلّين، لأنّ المصلّين يقولون: (سمع الله لمن حمده)**»[(٢)].

فانظر إلى العبد كيف ارتبط بكل المصلّين في العالم، ودخل تحت دعائهم بكلمة واحدة.

---

(١) البحار: ج٩٠، ص١٦٢.

(٢) الوسائل: ج٤، ص٢.

كذلك من عمل عملاً بإتقان، دخل تحت دعاء النبي ﷺ بقوله: «**رحم الله من عمل عملاً فأتقنه**»[(١)].

ولا ريب أنّ دعاء النبي ﷺ مستجابٌ، ومن أدركته الرحمة من الله نجى من الهلكة.

ومن في هذا العصر يتمنون ويشتاقون أن يكونوا في عصر النبي ﷺ حتى تدركهم منه دعوة، ويتخيلون أن هذا أمر قد فات، ولا تدارك له، وهو اشتباه، فإنّ تعرضهم لدعاء النبي ﷺ ووصوله إليهم ممكن في هذا العصر بأيسر وجه كالذي قلنا:

من عمل عملاً بإتقان، فيدخل تحت دعاء النبي ﷺ بالرحمة.

ومن كان يصوم يوماً من شعبان مثلاً، فيدخل تحت دعاء النبي ﷺ بقوله: «**شعبان شهري، رحم الله من أعانني على شهري**»[(٢)].

وحاشا النبي ﷺ أن يحرم أهل هذا الوقت من بركات دعائه الشريف، بل وقد وضع أدعية شريفة لأهل عناوين عامة، فمن شاء أدخل نفسه تحت عنوان من تلك العناوين الشريفة، فيشمله ذلك الدعاء المستجاب.

انظر إلى نفسك يا أخي كيف عرّضك لرحمته بالدخول تحت

---

(١) كنز العمال: ٩١٢٨.

(٢) الوسائل: ج١٠، ص٤٩٢.

هذه العناوين الشريفة، التي هيّأت لك لأن تدخل نفسك فيها، وأنت بغفلتك وتغافلك تريد أن تدخل نفسك تحت عناوين خبيثة، يتوجّه إليك كل من في العالم بالدعاء عليك.

فإنه من كدّر مؤمناً من المؤمنين كدّر رسول الله ﷺ لذلك، ثم علياً عليه السلام، ثم الحسن، ثم الحسين، ثم الأئمة عليهم السلام، ثم من في العالم كلّه، فيضجّ عليك العالم ضجة واحدة: كدّرك الله كما كدّرتنا[1].

فيا أخي!.. شأنك عظيم، وخطرك جسيم، وأنت بين حالتين في كل أطوارك وأحوالك: إما أن تُقبل على الله، أو تعرض عنه[2] فإن أقبلت عليه أقبل هو عليك، وإن أعرضت عنه أعرض عنك، وأعرض لإعراضه عنك كل شيء، وأنت بينهما لا تنفك عنهما.

---

(١) الكافي: ج١، ص٩٠.

(٢) إنّ هذا المعنى من المعاني التي لو استوعبها العبد على حقيقته، لأحدث تغييراً جوهرياً في حياته، إذ إنّ النفس قد تحدّث صاحبها بالتسويف، لكون العذاب الإلهي في الآخرة أمراً مؤجّلاً..ولكن كيف يهمل الإعراض الإلهي المعجّل عند المعصية.. فهذا إمامنا السجاد عليه السلام يقول لأهله بعد أن سقط ولدها في البئر والإمام عليه السلام مقبلٌ على صلاته: لو ملتُ بوجهي عنه لمال بوجهه عني، فمن ترين أرحم بعبده منه؟.. (دلائل الإمامة: ص١٩٨).. وهذه حقيقةٌ واضحةٌ عند الخواص، وهي أنّ الإعراض الإلهي أشدّ إيلاماً للعبد من عقوبة البدن..(المحقق).

فيا من هو على المقبلين عليه مقبل، وبالعطف عليهم عائد متفضّل، ارزقنا اللهم التوفيق لما يوجب دوام الإقبال عليك، ودوام إقبالك علينا، وحسّن أدبنا بين يديك، إنك أرحم الراحمين، وصلى الله على محمد خير خلقه وآله الطيبين الطاهرين.

الباب السادس

وكيف يسلك عباد الله الطريق إليه

اعلم أنّ كل شيء يهون بالنظر إلى ما فوقه، وما هو أشدّ منه، بل يضمحل ويفنى، ولا يكون شيئاً مذكوراً. كالذي تشوكه شوكة فيلدغه عقرب، فلا ريب أن الشوكة تكون عنده نسياً منسياً، ولا ذكر لها عنده بوجه من الوجوه، فالباري سبحانه وتعالى قد قهر كل شيء من الأشياء بوجود ما فوقه.

انظر إلى عظمة أمير المؤمنين عليه السلام، وشدة بأسه وبطشه، وبلوغه في كل كمال أقصاه ومنتهاه، كيف يتصاغر عند ذكر محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ويقرّ على نفسه بالعبودية حيث قال: «**أنا عبد من عبيد محمد** صلى الله عليه وآله وسلم»(١).

وهذه قاعدة محسوسة في سائر الممكنات والموجودات، فإذا أردت أن تهون عليك الدنيا وشدائدها فانظر إلى ما هو أشدّ وأصعب، وتأمّل أن لو أضيف إلى ما أنت فيه شدة أخرى مما هو

---

(١) الكافي: ج١، ص٨٩.

أشدّ عليك كيف كنت تصنع، فحينئذ يهون عليك ما أنت فيه بالنسبة إلى ما هو فوقه، وترى تلك الحال نعمة وتقول:

الحمد لله الذي لم يشدّده عليَّ، ولو شاء لفعل.

وكذلك إذا أردت أن يهون عليك استحسان ما يتفق لك من الأعمال الحسنة، بحيث تخلص من الابتهاج الذي هو مادة العجب والافتخار، فانسبه إلى ما هو فوقه من الأعمال الحسنة مما يعملها من هو فوقك، ومن هو أحسن منك.

أو أنت إذا ترقيت عن المقام الذي أنت فيه، فإنك ترى ذلك العمل ذنباً وتقصيراً يحتاج إلى الاعتذار، وتستحي من نسبته إلى نفسك، فضلاً عن افتخارك وابتهاجك به.

وأنت إذا اعتدت هذه الحالة بإذن الله الكريم المتعال سرت إلى الله بلا انقطاع، إذ ليس لمحبته غاية ولا نهاية، إذ كلما تدرجت إلى مقام في الإخلاص والعمل، شاهدت مقاماً أعلى وأبهى وأسنى وأرفع(١) فإن كنت تريد النهاية به فليس هناك نهاية تصل إليها،

---

(١) إنّ الإحساس بالتجليات الإلهية ـ التي هي من أهمّ الهبات في عالم الوجود ـ نِعْمَ العون على المسير، فإنّ العبد كلما كُشف له الغطاء في هذا المجال ازداد شوقاً لما هو أجلى وأحلى، إذ لا تكرار في التجلّي. . فلكلّ إطلالةٍ من عالم الغيب بهاءٌ وجذبٌ خاصٌّ للعبد، تختلف عن سابقتها، ومن هنا فإنّ الأولياء المتنعّمين بلذّة التجليّات، لا يكاد ينتابهم ضيقٌ في الحياة بكلّ مراراتها، لأنّ لذّة الوصل يُنسيهم =

وتقف عندها، وإن كنت تريد الوقوف من دون مانع عن الترقي فلا يسوغ لك ذلك، إذ الكريم سبحانه يستدعيك بلطفه وَجُوده إلى القرب منه، فبأي شيء تستبدل منه!.. وإلى أي شيء تتحول عنه!.. لقد خاب من رضي دونك بدلاً، ولقد خسر من بغى عنك متحولاً.

فحيث اتضح بصريح العقل أنه لا بدّ من السير إلى الله بسلوك سبيل طاعته بلا انقطاع، فاعلم أن ذلك إنما يتمّ لك بأن تكون في وقوفك عن الطاعة ملاحظاً وجهاً آخر من وجوه الطاعة، فإنّ الله سبحانه يحب الأخذ برخصته، كما يحب الأخذ بعزائمه.

فمن يكون طالباً لمحبة الله سبحانه وتعالى، يفتح الله له هذا الباب بأن يجعل فعله للعبادة المندوبة الراجحة جالباً لمحبته عزّ وجلّ، فإنها بالذات كذلك، وكذلك يحصل بتركه لها في مقام يخشى على نفسه الملل والنفرة عن الطاعة ـ كما هو مقتضى الطبع البشري ـ مرخصاً فيه من الله، وهو يحب الأخذ برخصته، فيكون تركها جالباً لمحبته عزّ وجلّ بالعرض، وإن لم يكن بحسب الذات كذلك.

فيكون العبد متعرّضاً لمحبته عزّ وجلّ في فعله وتركه، إنّ هذا لهو الفوز العظيم، لمثل هذا فليعمل العاملون.

= ألم كلّ فراقٍ، ولو كان ذلك الفراق عند أهل الدنيا عظيماً. (المحقق).

ويشهد لهذا المعنى اختلاف المروي عن أمير المؤمنين عليه السلام وعن مولانا الحسن بن علي.

فعن الأمير عليه السلام أنه: إذا عرض له أمران كلاهما رضى لله اختار أشدّهما على نفسه، وعن الحسن عليه السلام أنه يختار أسهلهما على نفسه.

فالثاني من باب أنّ الله يحب أن يؤخذ برخصته كما يحب أن يؤخذ بعزائمه، ومن باب الاقتصاد في العبادة، ومن قولهم:

إنّ هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق، ولا تُكرهوا إلى عباد الله طاعة الله»(١).

ومن باب مخادعة النفس بالجلب إلى طاعة الله.

والأول وجهه ظاهر فإنه من باب المخالفة للنفس(٢) الذي هو

---

(١) الكافي: ج٢، ص٧٠.

(٢) إنّ تعبير المصنّف (بكون مخالفة النفس مفتاح البركات) ليس مبالغاً فيه، إذ أنّ من قواعد السفر إلى الله تعالى التي لا تنخرم أبداً، هي استحالة السير من دون السيطرة على زمام النفس، إذ كيف يمكن سوق دابةٍ ولجامها بيد غير صاحبها.. وعليه فالخطوة الأولى في الحركة هو تطويع الوجود الإنساني بجوارحه وجوانحه للإرادة، ومن المعلوم أنّ هذه المرحلة يمكن أن تعدّ قطعاً لنصف الطريق، إذ أنّ الميل والشهوة والخيال من الأبواب التي تجرّ العبد إلى الهاوية مهما كان العبد جادّاً في قطع الطريق، فإنّ الأمر لا يتمّ بالإيمان واليقين =

مفتاح البركات، وكلاهما في مقام الإرشاد للعباد والهداية للخلق، وإلا فمقاماتهم في أنفسهم بما تقصر عنه العقول والأحلام، وهم أعرف بها.

وكذلك لا بدّ لك من التروي في العمل والتدبّر فيه حتى يتأتى إيقاعه على الوجه المطلوب، وحتى يتحرّر أنه منبعث عن داعي الإخلاص، وذلك في الغالب يقتضي مدّة ومهلة، مع أن كلّ شيء أخّرته فللشيطان فيه نظرة، وللتأخير فيه آفات، وفيه يُخشى الفوات.

فإذا تعارض عليك هذان الأمران، حيث إنك بالتأخر تخشى الفوات، وبالتقديم والاستعجال تخشى فساد العمل بعدم التروي والتأمّل، ومخادعة الشيطان (لعنه الله) بإبرازه لك في صورة الطاعة، وهو في الحقيقة لداعي النفس والشيطان فيكون من نوع المعصية.

فطريق الخلاص من هذا التعارض، أن تعلم أنّ التأخّر الذي للشيطان فيه نظرة، وفي الغالب أن يكون مفتوتاً للعمل، إنما هو التأخّر عجزاً وكسلاً، وحرصاً على المال، ومحبة لأن يبقى في قبضتك ولا تنفقه فيخرج من يدك، هذا هو التسويف المهلك للعالم، وهذا لا شكّ في قبحه، ووجوب مجاهدة النفس ومخادعتها لأن تسلم منه.

= فضلاً عن الأماني.. ومن هنا قال الإمام الكاظم عليه السلام: «**وقد علمت أنّ أفضل زاد الراحل إليك عزمُ إرادة يختارك بها، وقد ناجاك بعزم الإرادة قلبي**» (الإقبال: ج٣، ص٢٧٧). (المحقق).

وأما التأخّر لأجل التروي والإتقان، فهو مطلوب ومحبوب ومأمور به من قبل ربّ العزّة، فلا يستتبع ندامة، ولا يكون مفوتاً للخير، لأنك محسنٌ بامتثالك الأمور و﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾(١)(٢).

مع ذلك إذا أردت أن تتقن الأمر وتضبطه، فاجعل تأخيرك مقروناً بالتوكّل على الله، في أن يمكّنك منه في الوقت الذي تؤخّره إليه ويعينك، واجعل تقديمك للشيء عند مجاذبة داعي الكسل والحرص إلى التأخير، مقروناً بالتوكّل على الله في أن يعينك على إخلاص المشيئة فيه، وإيقاعه على وجهٍ محبوبٍ إليه، وجالبٍ لرضاه.

فإذا قرنت الأمر بالتوكل في كل من التأخير والتقديم، واجتهدت في تشخيص الداعي إلى التقديم والتأخير، فإن كان هو الحرص على الشيء بالرغبة النفسانية والكسل، والحرص على ما في يديك، لم تنبعث لهذا الداعي الفاسد.

---

(١) سورة التوبة: الآية ٩١.

(٢) إنّ معرفة التوقيت المناسب للإقدام أو الإحجام عن العمل، تحتاج حقيقةً إلى بصيرةٍ وتسديدٍ من الله تعالى، فلطالما فوّتنا على أنفسنا المنافع العظيمة، نظراً لعدم ترقّب الفرص التي تمرّ كما يمرّ السحاب، فإنّ قطف الثمار في وقتها من هموم السالك.. فكم من الخسارة أن يستيقظ الزارع بعد موسم القطاف، أو أثناء الموسم وقت ذبول الحصاد؟!.. (المحقق).

وإن كان المحرّك على كلّ من التقديم والتأخير داعٍ صحيح انبعث له، فأنت محسنٌ في تقديمك وتأخيرك، وما عليك من سبيل، وأنت جالبٌ لمحبة الله بكلٍّ من التقديم والتأخير، كالذي قدّمناه لك من أنك متعرّضٌ لمحبة الله في فعلك وتركك.

فإن كان العبد متعرّضاً لمحبة الله بفعله وتركه، وتقديمه وتأخيره، تمّ له السير إلى الله بسلوك سبيل طاعته بلا انقطاع، وحاشاه حاشاه أن يقطع من انقطع إليه وقرع بابه(١).

ثم لا تتوهم انحصار طريق القرب إلى الله بالعبادة المعلومة من الصلاة، والصيام، وتلاوة القرآن، والتعلّم، والتعليم، واستعمال الأدعية، والزيارات، ونحو ذلك، بحيث يكون كل ما خرج عن ذلك لغواً، وتضييعاً للعمر فيما لا فائدة به، كما ظنّه كثيرٌ من إخواننا الصلحاء، فإنّ ذلك قصورٌ واشتباهٌ للأمر بك(٢).

---

(١) هذه العبارة على إيجازها دقيقةٌ جداً، فإنه جمع بين التعرّض للمحبة الإلهية ـ فإنه قوام الجذب الإلهي للعبد ـ وبين السلوك العملي أداءً للواجب وتركاً للحرام، فإنّ البعض يتوهّم أنّ إظهار المحبة من دون عمل ممّا يحقّق للعبد درجات من القُرب، فتراهم يهيمون في عالم من التحليق الروحي، مستخدمين الشعر تارةً والنثر تارةً أخرى، ليرجعوا بعد تحليقهم إلى واقعهم المُعاش بما فيه من موجبات إثارة سخط المولى، سواء في مجال التعامل الفردي أو الاجتماعي أو الأسري. . (المحقق).

(٢) هذا بابٌ من الأبواب التي تفتح على صاحبه أبواباً من المعرفة =

اعلم أنّ مراد الشارع الأصلي من المكلفين تقوية البصيرة، لكي يطيعوه بالبصيرة التامة، والمعرفة الكافية، وكل ما له دخل في تقوية البصيرة وزيادة الفطانة، فهو داخلٌ في مراد الشارع ومطلوبٌ له، بل يكون طلبه له وحثّه عليه آكد من غيره.

ومن اقتصر على العبادات التي ذكرناها، وقصُر نظره عنها، يغلب عليه الجمود، وتقلّ فطانته بالموضوعات الشرعية في القبلة والوقت ونحوهما، ويتمكن من خديعته من يريد الخديعة له في دينه من شياطين الإنس والجن، وهذا خلاف مراد الشارع ونقيض غرضه.

بخلاف من يمارس الأمور ببيعٍ وشراءٍ، ويتعلّم الآداب،

= والبصيرة في السير إلى الله تعالى.. فترى البعض يلخّص الطريق في مجموعة من الأذكار والأوراد، ناسياً أنّ الدين ليس من مقولة اللفظ، وإنما الدين قوامه المعرفة والمعاملة، وهما يفرزان الذكر الذي ينسجم مع طبيعة الشريعة.

ولطالما كان الانشغال بالأوراد ـ بغير طريقة أهل البيت عليهم السلام ـ من موجبات التخدير الباطني، فيرى أنه على شيء وليس على شيء..

أضف إلى ذلك كلّه أنّ حقيقة الدعاء ـ وهي الحركة النابعة من القلب ـ من مقولة المعاني.. والدعاء اللفظي ليس إلّا كاشفاً عن تلك المعاني الباطنية.. فإذا خلي اللفظ عن استحضار المعاني المناسبة لها كان الكاشف خالياً عن المنكشف له.. وما قيمة القالب الذي لا قلب له؟..(المحقق).

ومحاورة الخطاب، والنكت المستحسنة للسؤال والجواب، ويضيف ذلك إلى عباداته وأوراده، وعلمه وتعليمه، هو الرجل كلّ الرجل، نِعْمَ الرجل، والوجدان والاختبار لذلك أعظم شاهد.

وكلّما سرّحت نظرك في تعلّم شيءٍ من الصناعات المحسوسة، فتح الله لك أبواباً من العلم في المعقولات، والأصل في ذلك أن الله سبحانه قد ربط المحسوسات بالمعقولات، والأمور الأخروية بالأمور الدنيوية.

فمن أراد الأمور الأخروية بغير الأمور الدنيوية لم يتأتَّ له ذلك، فقد جعل الله الأمور الأخروية لا تتمّ إلا بالدنيوية، وجعل الدنيا المقصود بها التوصل إلى الآخرة محسوبة من الآخرة، ولا تدخل في مذام الدنيا، ولذا ورد في الحديث أنه: «**ملعونٌ من ترك آخرته لدنياه، ملعونٌ ملعونٌ من ترك دنياه لآخرته..**» انتهى معنى الحديث.

فإنّ الدنيا التي يُلعن من تركها للآخرة هي التي يُتوصل بها إلى الآخرة، ولا تتمّ أمور الآخرة إلا بها، وهي في الحقيقة من الآخرة، وتركها ترك الآخرة، والدنيا المذمومة هي التي لا يُقصد بها التوصل، وهي الفضول التي لا يتوقف عليها شيء.

فالنوع الأول من الدنيا كما لا بدّ منه في التوصل، وهي واجبةٌ، لذلك أيضاً بإذن الله جُعل الخوض فيها مفيداً للفطانة وتقوية

الفهم والبصيرة، وهو معنى ما في روايات التجارة: أنها نصف العقل[١].

وروي أيضاً: أنّ العبادة عشرة أجزاء: تسعة منها في التجارة، وجزء واحد في جميع الطاعات[٢].

ويؤيد ذلك أن النبي ﷺ اتجر قبل البعثة إلى الشام، وغيره من الأنبياء والمرسلين[٣].

فاقتضت الحكمة الإلهية أن تكون هذه الكمالات مفرّقة في العالم، وأن يكون كثيرٌ منها متداولاً على ألسنة الناس شائعاً بينهم حتى يصل إلى كلّ أحدٍ نصيبه، ولهذا أمر بأن تقبل كلمة الحكمة

(١) في معظم المصادر: تزيد في العقل كالكافي: ج٥، ص١٤٨.
(٢) في (الوسائل: ج١٢، ص٤): تسعة أعشار الرزق، بدل العبادة.
(٣) هذا هو مقتضى الجمع بين تكاليف العبودية في كل المجالات، فإنّ الجامعية في العمل بالشريعة من مواصفات السالك الصادق، بخلاف من يريد أن يطير بجناحٍ واحدٍ فضلاً عمّن يريد أن يطير بريشة واحدة!..
وممّا هو مجرّبٌ بالوجدان أنّ الخلل الذي يوجبه التقصير في السعي لتأمين المعاش من موجبات توزع البال وعدم استجماع الهم، والسالك أحوج ما يكون لدفع التشتت وما يسمى بـ(الكثرات) في حياته، فإنّ كلّ شاغلٍ بمثابة خيطٍ يشدّ العبد إلى ما يوجب له التثاقل إلى الأرض..
وهذا كله بخلاف ما يحلّ بالعبد من القضاء والقدر المحض، فإنه سيؤجر عليه وإن أوجب له التشتت قهراً، فالله عزّ وجلّ مدركٌ لكل فوتٍ، ومعوضٌ بما لا يخطر على بال العبد... (المحقق).

ممن جاء بها كائناً من كان، حتى قالوا عليهم السلام: «**خذ الحكمة ولو من أهل النفاق**»[١].

وقالوا عليهم السلام: «**خذوا العلم من أفواه الرجال**»[٢].

فلما أراد الشارع الحكيم لهذا العبد أن يستوفي نصيبه من الحِكم والمعارف، بذلها له في العالم حتى يتيسر وصولها إليه، وأمره بقبولها ممن جاء بها، فإن أهل البيت عليهم السلام أمروا شيعتهم أن يعرفوا الرجال بالحق، ولا يعرفوا الحق بالرجال، فقال عليه السلام: «**انظر إلى ما قال ولا تنظر إلى مَن قال**»[٣].

وقالوا: «**غريبتان: كلمة حكمة من سفيه فاقبلوها، وكلمة سفه من حكيم فاغفروها**»[٤].

فالكمال كلّ الكمال إنما هو اكتسابٌ من أقوالٍ وأفعالٍ، أو معاملاتٍ، أو تجاربٍ، حتى ورد عنهم عليهم السلام: «**إنّ العقل حفظ للتجارب، وخير ما جرّبت ما وعظك**»[٥].. «**وأن التجربة علمٌ مستفادٌ**»[٦].

---

(١) البحار: ج٢، ص٩٩.
(٢) البحار: ج٢، ص١٠٥.
(٣) المصدر نفسه: ج١، ص٣٥٥.
(٤) المصدر نفسه: ج٢، ص٤٤.
(٥) المصدر نفسه: ج٧٤، ص٢٠٨.
(٦) غرر الحكم.

فما انقدح في نفوس جملةٍ من الإخوان من الاقتصار على هذه العبادات المألوفة، وقصر النظر عليها جرّبناه، واختبرناه، وتأمّلنا في الأحوال الماضية من أهل الأعصار السابقة ممن نُقل إلينا حاله، فوجدناه مستلزماً للبلادة وقلّة الفطانة، غير موصل صاحبه إلى الترقي، واكتساب المقامات الرفيعة، فأحببنا التنبيه على أنه من خدع الشيطان الرجيم (لعنه الله) التي يحبسه بها عن الانتقال إلى المقامات الرفيعة، والرتب السنيّة.

وممّا يُهتدى إليه باستسهال الشيء بالنسبة إلى ما فوقه، استحقار الدنيا وشؤونها وأطوارها، بنسبتها إلى أمور الآخرة وأحوالها وأطوارها.

فالواجب على من يريد الإقبال على الله أن يُخرج هموم الدنيا من قلبه، فلا يفرح بشيء مِنها أتاه، ولا يحزن على شيءٍ منها فاته، بأن يتدبرها في نفسها، وينظر في فنائها وزوالها، وسرعة تقلّباتها، وعدم دوامها على حال، فالعاقل لايليق به أن يتوجّه إلى هذا الشيء الذي لا يستقرّ على حال، بل هي في الحقيقة لا شيء.

وثانياً بأن هذه الدنيا إن فرضناها شيئاً ـ كما هو مقتضى تلبيس الشيطان (لعنه الله) الذي لبّس به على هذا الخلق، بحيث أوهمهم بأنها في نفسها شيءٌ حسن ـ لكن لا ريب وبالضرورة لا نسبة لها إلى ما هو أحسن من ملاذ الآخرة التي اجتباها الله لأوليائه، واختارها لأصفيائه.

فعلى فرض أن الدنيا فيها شيءٌ من الحسن، فهو مضمحل عند نسبته إلى حسن الآخرة.

فإذا أدمت النظر وأحسنت الفكر، انجلى لك أن من يتوجّه إلى شيءٍ من أمور الدنيا من حيث إنها دنيا ـ لا لأجل التوصّل إلى الآخرة ـ متوجّهٌ إلى العدم المحض والباطل الزائل[1].

فيا أيها الأخ!.. اعلم أنّ طريقة أهل البيت عليهم السلام على أن تعرف بأنها ليست شيئاً في نفسها، فمهما رأيتها شيئاً وتريد أن تتركها لشيءٍ آخر أحسن منها، فأنت لم تهتدِ إلى طريقة أهل البيت عليهم السلام.

(١) إنّ الالتفات إلى فناء الدنيا وزوالها من الأسباب المهمّة لقطع التعلّق القلبي بها، فإنّ المذموم هو حبّ شهواتها، وإلا فإنّ ذات الدنيا مما لا توصف بحسنٍ ولا قبحٍ.. فإذا كان الله تعالى هو المزيّن لها، فلا حقّ لأحدٍ في ذمّها، فكيف وقد استنكر الله تعالى من حرّم زينتها.. وإذا كان المزيّن هو الشيطان فإنه يحقّ للإنسان أن يحترز منها كما يحترز من الحيّة التي يلين مسّها وفي جوفها السمّ القاتل.
ومن الضروري مخادعة النفس في هذا المجال فنمنّيها بالأجر الأعظم الأدوم لترفع اليد على الأقلّ المنصرم.. وقد رُوي عن علي عليه السلام أنه قال: «**لو كانت الدنيا ذهباً والاخرة خزفاً، لأخذت خزف الآخرة على ذهب الدنيا، فإنه خزف باقٍ وذهب الدنيا فانٍ.. فكيف والآخرة ذهب باقٍ والدنيا خزف فانٍ؟...**» (شجرة طوبى: ج٢، ص٤٢٢. (المحقق)

فأجمع فكرك وتضرّعك إلى ربّك في أن يعرّفك الدنيا على ما هي عليه عند أهل البيت، لتكون في الذين يقتفون آثارهم، ويتبعون منهاجهم، وإلا فنحن بوادٍ والعذول بوادٍ.

وإذا تبدّه عندك بعض النظر الصحيح، والفكر الثابت المليح أن الدنيا ليست شيئاً يُطلب، ولا ممّا يصحّ أن يتوجّه إليه القصد، فلا مناص لك عن انحصار قصدك وتوجّهك فيما يرجع إلى الله، وفيما يطلب الله.

فإذا اتفق أنه يصدر منك بعد ذلك شيءٌ لا لله سبحانه بل لمقتضى الطبع، أو لميل النفس، أو لمخادعة الشيطان (لعنه الله) فهذا مما لم يكن داخلاً تحت قصدك، ولا مندرجاً تحت إرادتك وعزمك، بل أشبه شيءٍ بالكلام الذي يقع منك غلطاً، أو الكلام الذي أوقعك فيه الغير بحيلةٍ، أو خديعةٍ، أو أنه وقع منك نسياناً لما أنت بانٍ عليه، أو سهواً عما أنت عازمٌ عليه، فيصحّ لك على هذا أن تقول في الزيارة الجامعة:

«**مطيعاً لكم**».. حيث إنك في حال القصد والتخلية لا تطيع إلا لهم، ولا ترى غيرهم من أعدائهم أهلاً للطاعة إلا أن تُخدع، أو تفرّ أو تسهو، أو تغلط فتقع في غير مرادك، وخلاف قصدك، فيتأتى منك حينئذ التوبة الصادقة، والاستغفار الصادق، حيث إنك دائماً عازم على عدم العود في الإثم، وعلى الاستمرار على الطاعة[1] ولا تكون ممن ورد فيه الحديث:

---

(١) هذه صورةٌ من صور الواقعية التي اتبعها المؤلف في نهجه الأخلاقي، =

«بأن المقيم على الذنب وهو يستغفر منه كالمستهزىء بربّه»[١].

فتخرج بما ذكرناه عن عنوان المستهزئين، وكأنه إلى هذا المعنى أشار سيد الشهداء عليه السلام في دعاء عرفة:

«إلهي!.. إنك تعلم أني وإن لم تدم الطاعة مني فعلاً جزماً، فقد دامت محبةً وعزماً»[٢].

فكل ذلك يتوقف على خروج حبّ الدنيا من القلب، ولو بالمعنى الذي ذكرناه بأن يكون بناء أمرك وتصميم عزمك على أن لا تفعل شيئاً من أمور الدنيا من حيث إنها دنيا، إذ هي بهذه الحيثية ليست مقصداً للعاقل، بحيث تعدّ نفسك إذا فعلت ذلك لذلك داخلاً في السفهاء، وخارجاً عن عداد العقلاء، فإذا أتقنت ذلك بحيث تبدأه في نظرك تمّ لك الغاية التي ذكرناها وغيرها مما في معناها، فاغتنم ذلك ولا تكن من الغافلين.

= فإنّ الزلل الحاصل من الغفلة أو السهو لا ينبغي أن يبعث اليأس في نفس السالك، فإنّ القلب كثير التقلّب بطبيعته، والله تعالى يحبّ التوابين كما يحبّ المطهرين، وقد شبهت بعض الروايات المؤمن بالسنبلة التي تميل أحياناً وتقوم أحياناً أخرى.. ومن المعروف عند أهل المعرفة أنّ حركة العبد التكاملية بعد كلّ إنابةٍ وتوبةٍ، قد تشتدّ لتكون سبباً لتعويض المراحل التي خسرها عند الغفلة أو الشهوة. (المحقق).

(١) البحار: ج٩٠، ص٢٨١.

(٢) إقبال الأعمال: ص٣٤٨.

الباب السابع

كيف نسلك الطريق إلى الله؟

اعلم أن السالك سبيل الله، والمتوجّه لما عند الله يجب عليه أمور حتى لا ينقطع عليه الطريق، فإنّ أدلّاء هذا الطريق وهم أهل البيت عليهم السلام قد أرشدوا إلى أمور من عرفها سهل عليه، وإلا انقطع به الطريق، ورجع إلى خلفٍ رجوع القهقرى.

الاول: أن يعرف أن الخير كله عند الله، فلا يلتمس الخير إلا عنده، ولا يطلب من سواه.

فإذا عاشرت الخلق وباشرتهم فليكن ذلك طلباً لما عند الله، وابتغاء لرضا الله، بأن يكون همّك الإحسان إليهم، وإدخال النفع عليهم، «**فإنّ الخلق عيال الله، وأحبّ الخلق إلى الله مَن أدخل النفع على عيال الله**»[1].. كما في أخبار أهل البيت عليهم السلام[2].

---

(١) الكافي: ج٢، ص١٣١.

(٢) إنّ هذا المعنى قد يغيب عن قلوب الكثيرين حتى من الخواص.. فإنهم عند الإحسان إلى الخلق يعيشون حالة لا شعورية من المنّة على =

فإذا أردت المرتبة العليا بأن تكون أحب الخلق إلى الله على ما اقتضاه الحديث الشريف، فأتقن هذه المقدمة أولاً، وهي أن تعلم بأن انتفاعك منهم بهذا الطريق أعظم من نفعك لهم، حيث إنك بسببهم توصّلت إلى أن تكون أحبّ الخلق إلى الله، فلا تطلب منهم نفعاً غير هذا، واقطع النظر عن كل ما سواه.. فما وراء عبادان قرية.

فإذا كان أصل معاشرتك لأجل أن تنفعهم، ويصل منك الإحسان إليهم فوطّن نفسك أولاً على تحمّل الإساءة منهم، وعدم مكافأتهم بها، وهذا أول إحسان منك إليهم.

ثم إذا وطّنت نفسك على أن لا تكافئ المسيء بإساءته فلا تقنع بذلك، فإنك تريد الاقتداء بأهل بيت سجيتهم الإحسان إلى من أساء إليهم، والعفو عمّن ظلمهم، والوصل مع مَن قطعهم، والإعطاء لمن حرمهم.

فلا بدّ لك من توطين نفسك على أن تتمنى أن يسيء إليك أحد

= من أحسنوا إليه، ويبدو ذلك من خلال فلتات ألسنتهم ولحظات أعينهم.. فهذا المعنى الذي ذكره المؤلف من مقتضيات المعرفة العميقة بحقّ الله تعالى وبحقّ من أمر الله تعالى بصلتهم.. كما أنها من مقتضيات الرقابة الدقيقة، لما يدور في خبايا النفوس، فإنّ القلب لا يصير محطاً لأنوار الملكوت إلا إذا تخلى حتى عن هذه الشوائب الخفيّة، والتي هي بمثابة السيّئات عند المقرّبين وإن كانت تبدو بصورة الحسنات عند الأبرار. (المحقق).

ثم تُحسن إليه، حتى تتوصل بسببه إلى تحصيل فضيلة الإحسان إلى من أساء إليك، فتُحصّل التأسي بالنبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام حيث إن سجيتهم ذلك، وقد قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «**إن أحبّ الخلق إلى الله المتأسّي بنبيه**»(١).

فتحصل بإساءته إليك ومقابلتك له بالإحسان على هذا المقام العالي أولاً، ثم إنك مع فقرك ولؤمك وحاجتك، إذا كافأت المسيء بالإحسان فالله سبحانه وتعالى بكرمه وغناه أولى على أن يكافئك على الأعمال السيئة بالإحسان، فتحصل لك الحجة على إكرامه بذلك ثانياً.

بل هو سبحانه إنما أمرك بالإحسان إلى من أساء إليك، لينبّهك على أنك إنْ فعلت ذلك فأنا أولى بذلك منك، وأنت أحوج إلى إجراء المعاملة هذه معك، فأمرك بأن تجري هذه المعاملة.

ونفع هذه المعاملة العائد لك أعظم من النفع الذي أمرتك بأن توصله إلى من أحسنت المعاملة معه، فلو أنك نظرت بعين البصيرة لرأيت إساءته إليك، حيث أوصلك إلى هذه المقامات إحساناً يستحق الشكر عليه، فضلاً عن المجازاة له بالإساءة(٢).

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٦٠.

(٢) إنّ هذا القول من آثار تبدّل نظرة السالك إلى الوجود وحركة الحياة، ومن هنا كانت المعرفة والبصيرة المقدمة الأولى للسير نحو الكمال.. فانظر كيف أنّ السالك يحوّل الخصومة التي تحمل في طيّاتها الكثير =

وهذا كله على تقدير تحقّق الإساءة إليك من الغير، وإلا فعلى تقدير أنك ظالم أو تتظلّم كما هو المشاهد في أحوال غالب الخلق، فالأمر أجلى وأوضح، فإنا ما رأينا أحداً من الناس إلا وهو يشتكي ويتظلّم، ولم نرَ إلى الآن متنازعين ومتخاصمين من الأخيار ولا من الأشرار، وأحدهما يقرّ للآخر: إني ظالمٌ لك ومتعدٍّ عليك.

بل لم نزل نرى الأخيار وأهل الصلاح والتقوى يتخاصمون، وكلّ يدّعي المظلومية من الآخر، وأنه صاحب الإحسان عليه، والتحمّل منه، وهم ممّن لا يتعمدون الكذب ولا يتجرؤون عليه، فاعلم أن ذلك من مكائد النفس الأمّارة، وتلبيسها الباطل بصورة الحقّ حتى تشبّه الأمر على صاحبها.

ولهذا ردّ الشارع الحكيم شهادة العدل لنفسه، ولم يجز التعويل في ذلك على عدالته، فوجب على العاقل المنصف أن يتّهم نفسه في حقّ نفسه، ولا يقبل شهادته لنفسه، كما لا يقبله الشارع.

فهذا غير الذي تعاشره وتباشره، إن كان أصل معاشرتك أن

= من الظلمة والظلامة إلى أداة للتقرّب إلى المولى الحق، فيُثبت العبد فيها أنه عبدٌ لمولاه في كل حركاته وسكناته، وخاصةً عند إثارة دواعي الغضب أو الشهوة فإنهما من مزال أقدام العوام والخواص، ولطالما كانا من موجبات الابتلاء الدائم، إما بنار الجحيم أو بنار البُعد عن الحقّ، والتي لا تقلّ إحراقاً عن سابقتها عند من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. (المحقق).

تنفعه لا لأجل أن تنتفع منه، فقد أرحت قلبك أولاً بقطع الآمال من الناس، وقطع الطمع عنهم، وهذا هو الغنى الأكبر الذي هو غنى النفس.

ثم إن أول صدقة منك عليهم أن تكفّ الأذى عنهم، وأول ذلك أن ترفع أذاك عنهم، فلا تتعرّض لهم بما يؤذيهم، ثم توطّن نفسك على تحمل الأذى منهم، ثم اجعل همك إيصال الإحسان إليهم.

فإذا توطّنت نفسك على ذلك، فإن وصل إليك مكافأة بإحسان فهذه نعمة غير مترقبة، فتكون أوقع في النفس وألذّ.

وإن رأيت أنهم قد قطعوا النظر عنها، وتعلّقت نفوسهم بأن تقبلها منهم فاقبلها منهم، فإن قبولها الإحسان عليهم ولو لم تكن محتاجاً إليها، فإنّ ردّها يكدّر خواطرهم، وهو إساءة إليهم وقد وطَّنت نفسك على ترك الإساءة إليهم، وأنت مأمور بذلك[١].

---

(١) هذه صورةٌ أخرى من صور الواقعية في نهج المؤلف، فإنّ الرقة ودماثة الأخلاق، من الصفات الأساسية في السالك، ولطالما رأينا غير ذوي البصيرة في هذا الطريق يُلحقون الأذى بالغير بقولٍ أو فعلٍ.. أو يوجبون الوهن لهم، أو يدخلون الهمّ والغمّ عليهم، بدعوى الترفّع عن الدنيا والإعراض عن الخلق، غافلين عن حقيقة أنّ من كسر مؤمناً فعليه جبره (الكافي: ج٢، ص٤٥).. ومن دون هذا الجبر قد يكسر الله منه، ما لا جبر له في الدنيا ولا في الآخرة.. (المحقق).

وإن كان إحسانهم الذي وقع مكأفاة مجرّد تعارف، ويتوقعون منك أن تردّها عليهم، فاقبلها منهم ثم ردّها عليهم من باب الهدية الجديدة كما هو وفق إرادتهم.

وإن كان مرادهم أن تقبلها منهم وتكافيهم عنها بعوض آخر أزيد منها فاقبلها منهم وكافئهم بالأزيد، وهو الإحسان إليهم، ولا تظهر لهم أنك فهمت أنهم أتوا بها لأجل العوض، بل أجْرِ الأمر على ظاهره، فهو إحسان منك إليهم.

والحاصل يا أخي!.. أنّ الله يأمر بالعدل والإحسان وكما تدين تُدان.

واعلم أن عمدة الإحسان إلى الناس ليس ببذل المال، فإنا رأينا كثيراً من الناس يبذلون المال ولا يكون ذلك إحساناً، بل يستتبع إساءة، وتكدير خاطر، ويكون من قبيل صدقة يتبعها أذى بحسب الخارج، وإن كان أصل قصدهم الإحسان، لأنهم لا يعرفون وجهه، وكلّ ذلك من إهمال قواعد أهل البيت عليهم السلام، وعدم الالتفات إلى طريقتهم.

فإذا أردت أن تقضي حاجة لأخيك المؤمن على وفق طريقة أهل البيت عليهم السلام، فاعلم أنهم قالوا: إن قضاء الحاجة تتمّ بأمور: تصغيرها لتكبُر، وتعجيلها لتهنأ، وكتمانها لتظهر(١).

(١) تحف العقول: ص٤٠٣ قريب منه.

وما لم تجتمع هذه الأمور لا تكون الحاجة تامة، بل تكون ناقصة مكدّرة، بل ربما كانت أذية على صاحب الحاجة.

وعادة الخلق أنهم إذا قضوا حاجة يُخلّون بهذه الأمور كلها، فلا يتمّ في أعمالهم قضاء حاجة على وجهها، وهذا هو العظيم حيث إنهم يتجرّعون مرارة إنفاق المال، ولا يترتب عليه الثمرة المطلوبة الذي هو إدخال السرور في قلب المؤمن.

وتراهم إذا قضوا حاجة يَعِدُونه بها أولاً، ثم يماطلونه، فيبقى يتجرّع مرارة الانتظار الذي هو أشدّ من القتل، ثم يتجرّع مرارة اليأس من الحاجة مراراً، ثم بعد حين تُقضى الحاجة وقد تحمّل مرارة المطالبة، ومرارة الخجل، مع مرارة الانتظار، ومرارة اليأس، ومرارة الفشل من الناس الذين وعدهم، معتمداً على وعدهم الذي وعدوه فأخلفوه، فأي لذّة تبقى بعد هذا، بل كان إثمها أكبر من نفعها.

وكذا عادتهم في الحاجة أنهم لا يصغرونها، ويقولون: هذا أمر جزئي بالنظر إلى قدر المؤمن الذي في بعض الروايات: أنّ حرمته أعظم من حرمة الكعبة[١].. بل يظهرون أنّا قد فعلنا معك إحساناً عظيماً، بحيث يتوقعون أن يترك العبودية لله عزّ وجلّ ويصير عبداً لهم!.

---

(١) البحار: ج٦٤، ص٧١.

وكذلك لا يخفونها على الناس حتى تقرب من الإخلاص وتبعد عن الرياء، وتكون من قبيل العمل الخالص الذي في الحديث: «**عليك إخفاؤه وعليّ إظهاره**»(١).

بل يظهرونها لجميع الخلق، ويذلونه في جميع العالم، فهذه عادة الخلق المنحوسة، والعيان فيها يغني عن البيان.

فعلم مما ذكرناه أن الإحسان ليس عمدته بذل المال، بل عمدته ملاحظة الأمور التي ذكرناها.

والإحسان إلى كل شخص إجراء الأمر على وفق مراده، والتحذير من تكدير خاطره(٢) فمن يكون مراده أن تقبل منه فإحسانك بقبول ذلك الشيء منه، وإن أردت أن تكون يدك العليا فكافئه عنه بأحسن منه، أو مثله إلى غير ذلك مما لا يخفى على المتأمّل المراعي لدقائق أهل البيت عليهم السلام لوصاياهم وسجاياهم.

---

(١) الجواهر السنيّة: ص٣٦٣.

(٢) إنّ مسألة تحاشي تكدير الخواطر ـ وخاصةً ذوي النفوس البريئة ـ من الأمور التي ينبغي أن يلتفت إليها السالك، فلطالما كان سبباً لأنواعٍ من الخذلان، وكلما صفا العبد وازدادت درجة قُربه من الربّ، كلما عظُمت الخطورة بتكدير خاطره، فإنّ الله تعالى عند المنكسرة قلوبهم (دعوات الراوندي: ص١٢٠)، وهو سريع إلى نصرة عبده المؤمن.. وقد رُوي أنّ امرأةً دخلت النار في هرةٍ ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض (الحدائق: ج٧، ص٢٧١)، فكيف بمن آذى من تجلى الله تعالى في قلبه فصار شأناً من شؤونه؟.. (المحقق).

فإذا تمّت لك المعاشرة مع الخلق لأن تنفعهم، وقطعت نظرك عن الانتفاع بهم بالمرة، بحيث إنّ كلّ نفعٍ تؤمّله منهم تعدل به إلى من لا تخيب عنده، ولا يقربه البخل في حال، فلا تستغرق أوقاتك بالخلق، وتجعلهم شغلك وهمك، فإنك مأمور من أهل البيت عليهم السلام: «**أقلل معارفك، وأنكر من عرفت**»(١).

والحكمة في ذلك أن لا يشغلوك عن التوجّه إلى خالقك، فإنّ في التفرّغ للعبادة، وخلوّ البال عن كل شاغل يشغلك عن الله معنوية لا تُنال بمعاشرة الخلق، وفي الحميّة معنى ليس في العنب.

ولهذا قال أحد الأئمة عليهم السلام لمن قال له: «**خلوت بالعقيق وتعجّلت بالوحدة: يا هذا!.. لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت من نفسك**»(٢).

فالمراد أنك حيث تحتاج إلى معاشرة الخلق لا بدّ أن يكون طورها على ما وصفناه لك.

وليس المراد أنك تجعل شغلك الاشتغال بمصالح (الخلق) فلا بدّ من توزيع الوقت وتقسيمه، فتجعل لك وقتاً للتضرّع إلى الله ووقتاً لمعاشرة الخلق، بأن يكون جالباً لرضاء الله، ومقصوداً به وجهه، وليكن حظّك من الأول أوفى، وليكن هو همّك وبغيتك، فإنه

(١) المستدرك: ج١١، ص٣٨٧.
(٢) البحار: ج٧٥، ص٢٥٤.

المطلوب منك بالأصالة[1] وحتى يتأتى لك إرجاع الثاني إلى الأول وإلا ملت به إلى حظ النفس، وصار وبالاً عليك، فلا تنال منهم دنياً ولا آخرة، ووقعت فيما فيه الناس من الظلم والتظلّم، وألم الشكوى من جميع المعاشرين، كما أنهم لا يزالون في الشكاية منك فلا تنال رضاهم أبداً.

لا خير ولا راحة إلا في الإقبال على الله، والتوجّه إليه، وبذلك يسهل كل شيء من مهمات الدنيا والآخرة، وكل تعبٍ وهمٍّ وشدّةٍ وغمٍّ فإنما يترتّب على الغفلة عن الله والإدبار عنه، وهذا ما يتعلّق بالأمر الأول من الأمور التي تُلزم من يريد أن يسلك سبيل الله.

الثاني: أن يراعي حقوق الخلق في الله، فإنّ مراعاة حق الخلق في الله مراعاة لحق الله، كما أن إهمالها إهمال لحق الله.

---

(١) إن قيد بالأصالة من القيود، التي لا ينبغي أن لا يغفل عنها أبداً.. فالملاحظ أنّ البعض من المبتدئين، يشتغل بالقيام بما لله تعالى رضا في أصله، ثم يستغرق في ذلك بما يوجب له الذهول عن الحقّ المتعال، كما لو دخل مجلساً لإصلاح ذات البين، فيتوغل في ذلك العالم بما يجعله يتعامل وكأنه أحد المتخاصمين، فيقسو في القول، وقد يجيز لنفسه أن يستمع إلى ما لا يجوز الاستماع له، كما إذا تجاوز الخصم حدّه فذكر ظلماً مستوراً لا يتعلّق بالمظلوم، وهكذا دخل بقصد القربة ابتداءً لا استدامة، والحال أن الدوام أشقّ من الابتداء كما هو معلوم.. (المحقق).

فإذا أردت ذلك فاعلم أن لهؤلاء حقوقاً كثيرة يلزمك أن تعرفها حتى لا تجهل حق الله فيهم، فإذا عرفتها استعنت بالله على أدائها، والقيام بها، وإذا عجزت عنها كان اعترافك بالعجز قائماً مقام القيام بها.

فأحدها: أنهم يقولون: (علي ولي الله) وكل من يقول هذه الكلمة الشريفة كيف يمكنك القيام بحقّه؟.. بل كيف يمكنك معرفة حقّه؟.. بل كيف تتصوّر حقّه؟.

هيهات!.. هيهات!.. حقّ من يعترف بهذه الكلمة تابع لحقّ من هو منسوبة إليه وهو علي عليه السلام، وحقّه تابع لحقّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وحقّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تابع لحقّ الله تعالى، وكيف يمكن القيام بحقّ الله وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأبي ذر: «**إنّ حقوق الله جلّ ثناؤه أعظم من أن يقوم بها العباد، وإنّ نِعَم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أمسوا تائبين، وأصبحوا تائبين**»(١)(٢).

---

(١) البحار: ج٧٤، ص٧٦.

(٢) لاحظ هذا التدرّج الذي نبّه عليه المؤلّف، وكيف أنّ السالك الملتفت لا ينظر إلى الأمور بعفوية وسذاجة، فهو ينتقل من المبادئ لينتهي إلى الغايات، إذ ينظر إلى الأمور كلّها على أنها منتسبةٌ إلى الله تعالى، وكلما اشتدّ انتسابه إليه عظم حقّه لديه، فليس الإخلال بحقّ المؤمن إخلالاً بحقّ فرد مبتور الصلة بمولاه، بل إخلالٌ بمن أخذ الله تعالى على نفسه عهداً أن يدافع عنه.. ومن الذي له قدرة المواجهة، مع من جعل الله تعالى نفسه وكيلاً عليه وناصراً له؟....(المحقق).

وقد قال رسول الله ﷺ لبعض أصحابه وهو يشير إلى علي عليه السلام:

«والِ ولي هذا ولو أنه قاتل أبيك وولدك، وعاد عدوّ هذا ولو أنه أبوك وولدك»[١].

فإذا أوجب له انتسابه لعلي عليه السلام وموالاته له أن تسامحه في قتله لأبيك وولدك، وتغفر له ذلك، فكيف بما دون ذلك؟!.

بل لا يُكتفى منك بمجرّد المسامحة والعفو، بل يجب له مع ذلك أن تحبّه وتكرمه وتحترمه، كما هو مقتضى الموالاة، بل لو فديت له نفسك لكان قليلاً في حقّ من هو منسوب إليه، ولقد أجاد الشاعر حيث يقول:

وما حبّ الديار شغفن قلبي ولكن حبّ من سكن الديارا

فأنت إذا تسامحت مع محبّ أمير المؤمنين عليه السلام فالله أولى بمسامحتك، وأن يغفر لك كل ذنب إكراماً لمحبّتك إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فإنّ الله أشدّ حباً منك لأمير المؤمنين عليه السلام.

وكلما كان مقصراً في طاعة أمير المؤمنين عليه السلام، ولاحظت مجرّد الانتساب، واحترمته لذلك، فيكون احترامك لأمير المؤمنين عليه السلام أعظم.

إذ من هو بذاته مستحقّ للاحترام ربما يكون احترامك له من

(١) الوسائل: ج١٦، ص١٧٨.

جهة قابليته بذاته للاحترام لا لجهة الانتساب المحض، فيكون دالّاً على شدّة الاحترام، إذ لولا القوّة والشدّة لما غلبت على الموانع المعارضة.

فهذا أحد الحقوق وفيه الكفاية، وأنّى لك بالقيام به!.

فكيف إذا انضمّ إلى ذلك أنه من ذرية علي عليه السلام؟.

وكيف إذا انضمّ إليه كونه من زائريه، أو كونه من مجاوريه، أو من خدام حضرته، أو اسمه اسمه أو اسم أحد أولاده عليهم السلام، أو كونه يسمّى بما يدلّ على الانتساب إليهم، كعبد علي، أو عبد الحسين؟.

وأما حقّ الرحمية، وحقّ المجاورة، وحقّ المرافقة، وحقّ الدعاء، وحقّ تعليم القرآن، أو تعليم حرف من العلم، أو كمال من الكمالات، أو كونه أكبر منك سنّاً، أو كونه مجتهداً لك، أو إماماً لك في الجماعة، أو كونه محسناً إلى بعض أرحامك، أو إلى بعض جيرانك، أو كونه سائلاً عنك، أو طالباً، أو محسناً بك الظنّ، أو نحو ذلك مما اشتملت عليه رسالة الحقوق لمولانا علي بن الحسين عليه السلام، وكلها حقوق عظيمة عند أهل البيت عليهم السلام، ومسؤول عنها يوم القيامة[١][٢].

---

(١) التحف: ص٢٥٥.

(٢) إنّ هذه الرسالة لا يمكن أن يغفل عنها السالكون إلى الله تعالى، ومن أقدر من زين العباد أن يكون شارحاً لحقوق الله والعباد؟!..
إنّ من الضروري أن يحيط السالك علماً بمجموعة من النصوص =

فأنّى لك بالخلاص منها، والعذر عنها، وقد ورد ما معناه: أن ثلاثة يشكون يوم القيامة إلى الله: مسجد مهجور، وقرآن مطروح في البيت عليه غبار لا يُتلى فيه، وعالم في محلّه لا يسمع منه[1].

فما حال من أبرز للحساب، واجتمع للشكوى عليه عند الحاكم العادل ثلاثة: بيت لله، وكتاب الله، وولي الله!.

فأيهم لا يسمع شكايته؟.

وأي هؤلاء ينكر حقّه وحرمته عند الله؟.

فهذه حقوق عظيمة كيف يمكنك الاعتذار عنها في ذلك الموقف العظيم؟.. فقد ورد: أنّ العاطس يعطس فلا يُسمّت فيطالب بحقّه فيُقضى له يوم القيامة.

فيا أيها الأخ المسترشد!.. أنت إذا نظرت بعين العقل ـ التي أودعها الله فيك لتبصر بها ـ لا يكون همّك إلا الاعتراف بالتقصير والسعي في خلاص رقبتك من الحقوق التي لزمتك، وترى أنهم وإن

= والحقوق الواردة عن أئمة الهدى عليهم السلام في مجال السير إلى الله تعالى، إذ هم أعلم الخلق بهذا الأمر، فهم المعنيون في الدرجة الأولى بكل خطابات القُرب..
وكم من الخيبة والخسران أن يفني الإنسان عمره في سبر كلمات من يدّعي العرفان، تاركاً أصحاب البيوت التي أذن الله تعالى أن يذكر ويرفع فيها اسمه!.. (المحقق).

(١) عدّة الداعي: ص٢٧٢.

بالغوا في مسائلتك فأنت بعدُ مُطالب بالحقوق التي لهم عليك، فيكون همّك استعفاؤهم، والاعتذار منهم، والمبالغة فيما يمكنك من الإحسان إليهم، رجاء ليعفو الله، ويرضيهم عن بعض الحقوق.

فأنت إن نظرت إلى الخلق بهذه العين التي أودعها الله فيك، سهل عليك سلوك سبل الله، وهذا هو الأمر الثاني.

الثالث: أن يستوحش من الخلق أنساً بالله، فإنّ العاقل يلزمه أن يكون مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه، عارفاً بأهل زمانه، مستوحشاً من أوثق إخوانه.

فمن هو هكذا دعا له علي عليه السلام بقوله: «**شدّ الله من هذا أركانه، وأعطاه يوم القيامة أمانه**»(١).

وفي الكافي عن جابر قال: دخلت على أبي جعفر عليه السلام فقال:

«**يا جابر!.. والله إني لمحزون، وإني لمشغول القلب.**

قلت: جعلت فداك!.. وما شغلك، وما حزن قلبك؟.

فقال: يا جابر!.. إنه من دخل قلبه خالص دين الله، شغل قلبه عمّا سواه»(٢).

وفيما كتبه أمير المؤمنين عليه السلام إلى بعض أصحابه: «**فإنّ من**

---

(١) الكافي: ج١، ص٤٩.
(٢) الكافي: ج٢، ص١٠٧.

اتقى الله، عزّ وقوي، وشبع وروي، ورفع عقله عن أهل الدنيا، فبدنه مع أهل الدنيا وقلبه وعقله معاين الآخرة»[١]. . انتهى.

فالمؤمن إذا أنس بألطاف الله، وذاق طعم حلاوة ذكر الله، يلزمه الوحشة من مفارقة هذه الحالة، فلا يرضى بمفارقتها.

فإذا منّ الله على عبده المؤمن بالتأييد، ألزم قلبه هذه الحالة وأشغله بها، ومكّنه مع ذلك من الالتفات معها إلى ما دونها ثانياً وبالعرض، وإن كان أصل شغله بها وأصل التفاته إليها، فلا يزال مستوحشاً من هذه الضميمة، ويريد التفرّغ لما هو المطلوب له بالأصالة، والمقصود له أولاً وبالذات، إلا أن هذه الوحشة في قلبه لا تظهر على جوارحه[٢] كما قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصف المؤمن: «**حزنه في قلبه، وبشره في وجهه**»[٣].

(١) الكافي: ج٢، ص١٣٦.

(٢) من الضروري ـ كما أشار المؤلف ـ كتمان هذه الحالات المقدسة عن الخلق، فقد لا يكون عند الإبداء قاصداً غير الحقّ، ولكن لا يؤمن منه العجب اللاحق في ساعات الغفلة التي لا يخلو منها غير المعصوم. . أضف إلى تعريض المؤمن لسوء الظنّ وتهمة الرياء، وبذلك يكون مخالفاً لأمر مولاه في أن لا يجعل نفسه في مظانّ التّهم. . فإنّ عزة المؤمن من شؤون الحقّ التي لم يوكلها الله تعالى إلى عبده. . (المحقق).

(٣) البحار: ج٦٤، ص٣٠٥.

وربما يخبر بها إن اقتضى المقام إظهارها، كما مرّ في حديث الباقر عليه السلام مع جابر.

فهذا معنى كون المؤمن مستوحشاً من أوثق إخوانه.

فما لم تتمّ لك هذه الحالة، وهي كون الغالب عليك الاشتغال بالله، والوحشة عمّن سواه، ولو كان من أوثق إخوانك، فلا تقدر على جعل معاشرتك للخلق ذريعةً إلى القُرب إلى الله، لكون الغالب عليك الميل الطبيعي، وحظّ النفس من الأنس بالجنس البشري، فتصير عبداً للنفس ترضى لها وتغضب لها، وتخرج عن شرف العبودية لله، وما خُلقت لذلك، قال الله عزّ وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

الباب الثامن

لا يكمل إيمان المؤمن حتى تكون فيه خصال

اعلم أنه يُراد منك أن تكون مقتدياً بسنّة من ربّك عزّ وجلّ، ثم بسنّة من نبيّك ﷺ، ثم بسنّة من إمامك.

فعن الرضا عليه السلام أنه: «**لا يكون المؤمن مؤمناً حتى تكون فيه ثلاث خصال:**

سنّة من ربّه، وسنّة من نبيه ﷺ، وسنّة من وليّه.

فأما السُّنّة من ربّه: فكتمان سرّه، قال الله عزّ وجلّ: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾[1].

وأما السُّنّة من نبيه ﷺ: فمداراة الناس، فإنّ الله عزّ وجلّ أمر نبيّه ﷺ بمدارة الناس، فقال: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾[2].

وأما السُّنّة من وليّه: فالصبر في البأساء والضرّاء»[3].. انتهى.

(١) سورة الجن: الآيتان ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٩٩.

(٣) الكافي: ج٢، ص٢٤١.

فمن يكون مراداً منه الاقتداء بصفة ربّه التي يمتدح بها، لا شكّ أنّه معدّ لمقامٍ عظيمٍ وخطبٍ جسيمٍ، وذلك أنّ الله يريد أن يمكّنك داره التي اختارها واجتباها لأوليائه وأصفيائه وأحبائه، وهي الجنة، فلا بدّ أن يرشدك إلى الصفات التي تشبه بسكان تلك الدار، حتى تحصل المناسبة بينك وبين الدار وبين سكانها.

وأما الدار، فهي طيّبةٌ طاهرةٌ على أكمل ما يكون من الصفاء والنورانية، وأما أهلها، فهم الأنبياء، والمرسلون والشهداء، والصدّيقون، فتأبى حكمة الحكيم أن يرضى بكونك بتلك الدار غريباً أجنبياً عنها، وعن أهلها، بحيث يكون وضعك في ذلك المكان وضع الشيء في غير محلّه اللائق به(١)

وهو سبحانه برأفته ورحمته لك، لا يرضى لك إلا ذلك المكان الطيّب الطاهر، فاقتضى ذلك شدة العناية الإلهية بإرشادك إلى أعلى الصفات، وأكملها، وأبهاها، وأسناها.

---

(١) هذه الفقرات لو تمّ استيعابها، فإنها ستحوّل العبد من عالم العبادة المتكلفة، إلى عالم العبادة المنسجمة مع طبيعة المزاج، فإنه نظراً لرغبته في أن يكون مسانخاً لتلك الدار، فإنه يألف كل ما تحقّق له تلك المسانخة، ولو كان تكليفاً شاقاً بعنوانه الأولي.. فمن الواضح أن العبادة التي يُؤتى بها تعبّداً وتكلّفاً، ليس فيها إلا الأجر والثواب، بينما المطلوب من العبادة، أن ترفع بالعبد إلى مستوى الأنس بربّ العالمين، ذلك الأنس الذي يجعل العبد ينسى كل مشقّة وكلفةٍ في سبيل تحصيل رضاه. (المحقق).

فلم يرض منك إلا بأن تكون مقتدياً في الصفات التي لشرفها، ورفعتها، وجلالتها قد نسبها إليه عزّ وجلّ، وأثنى بها على نفسه.

فمن يكون متصفاً بالصفات المنسوبة إليه، يليق به أن يسكن في الدار المنسوبة إليه، ولما كان جيرانه في تلك الدار أولياء الله، ألزمه بأن يتصف بصفاتهم.

فعندها يخاطب الباري سبحانه نفسه، التي طابت وطهرت بالاتصاف بتلك الصفات الطيّبة الطاهرة، بقوله عزّ وجل: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ * ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ * فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي * وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾[1].

وتلك الصفات كثيرةٌ، إلا أنّ الإمام عليه السلام اختار منها ثلاثةً للاهتمام بشأن هذه الثلاثة، حتى وصف الإيمان معلّقاً عليها.

فالأولى: كونه كاتماً لسرّه، وذلك أنّ أغلب الخلق غالبٌ فيهم النقص وعدم الكمال، ولكنّ صفات الكمال معلومةُ الحسن والجمال والشرفية، بحيث إنهم يتمنونها لأنفسهم، لكن لمخالفتها لهوى النفس الأمّارة، وضعف همّتهم لمجاهدتها يتقاعدون عنها.

فإذا رأوا مَن له همّة الاتصاف بها يخافون أن يتصف بها، فيفوقهم في ذلك، والنفس لا ترضى بالانحطاط عن الأقران، بل

(١) سورة الفجر: الآيات ٢٧ ـ ٣٠.

تريد التفوّق عليهم طبعاً، فما دام يمكنهم يسعون كلّ السعي في منعه من ذلك بالأفعال، والأقوال، وبكلّ حيلةٍ.

والشخص الواحد لا قابلية له على مقاومة من لا يحصى عددهم، فلم يجعل الشارع للمؤمن طريق خلاص من ذلك إلا بكتم سرّه، وهو عدم إظهار ما هو بانٍ عليه، فحينئذ يُكفَى من شرّ الخلق، ولا ينقطع عليه الطريق.

فلما علم أهل البيت عليهم السلام الأطباء الماهرون والحكماء المشفقون، أنّ نفس هذا المؤمن الأمّارة بالسوء أيضاً هي من جملة أعدائه، وهي من جنس هؤلاء القطّاع للطريق، رغّبوا المؤمن هذا الترغيب العظيم في كتم السرّ، وبيّنوا له من صفات الربّ التي مدح بها نفسه، وأنّ وصف الإيمان موقوفٌ على ذلك.

والمقصود رفع منازعة النفس، وميلها إلى الإظهار، فيتوسّل إلى ذلك تارةً بأن فيه انتفاعاً لمن تظهره له، وتارةً بقصد إدخال السرور عليه، وتارةً بقصد الاستعانة بنظره لعلّ له نظراً في ذلك، أو بدعائه، أو لعله ينقله إلى مَن ينتفع به، إلى غير ذلك من الرجحان للإظهار(١)

(١) إشارات جميلة إلى صور تلبيس إبليس، الذي عندما ييأس من إيقاع العبد في الباطل المكشوف، يلجأ إلى أسلوب تزيين الباطل بالحقّ.. ومن هنا كانت البصيرة الكاشفة عن هذا التزيين، من لوازم السير إلى الله تعالى، وهذا التزيين ممكن في كل مرحلة من مراحل السالك، =

ودفع هذه التسويلات بأن ذلك لو كان راجحاً على الإطلاق، لما اختار الله إخفاء سرّه عنهم، وخصّه بخزنة سرّه، إذ الحكيم لا يترك الأرجح ولا يفعل إلا الأكمل.

فعلم من ذلك أنّ في الإظهار إفساداً لهم ومنافاةً للحكمة، فأنت أيضاً كن مقتدياً بربك في مراعاة الحكمة، واجتناب ما فيه الفساد، فإنّ مقصدها فاسدٌ، وإنما أبدته في صورة الصلاح، وقد قال مولانا علي بن الحسين عليه السلام للزهري:

«وإياك أن تتكلّم بما يسبق إلى القلوب إنكاره، وإن كان عندك اعتذاره، فليس كل ما أسمعته نكراً، أمكنك أن توسعه عذراً»[1].

وفي المنسوب إليهم عليهم السلام شعراً:

إنـي لأكـتـم مـن عـلـمـي جـواهـره
كـي لا يـرى الـعـلـم ذو جـهـل فـيـفـتـتـنـا
وقـد تـقـدم فـي هـذا أبـو حـسـن
إلـى الـحـسـيـن وأوصـى قـبـلـه الـحـسـنـا

= إلهاءً له بالمهم عن الأهم.. فكان لزاماً على العبد عند كل إقدام أو إحجام أن يدرس المحتملات الأخرى البديلة، ليتمّ اختيار الأفضل من بين الأفراد المتشابهة، وحينئذٍ يكون العبد أقرب إلى العمل بالتكليف الواقعي، الذي يستبطن مراد المولى واقعاً. (المحقق).

(١) البحار: ج٧١، ص١٥٦.

يا ربّ جوهر علم لو أبوح به
لقيل لي أنت ممّن يعبد الوثنا
ولاستحلّ رجال مسلمون دمي
يرون أقبح ما يأتونه حسنا

وهو مشهورٌ، والأخبار الواردة في مدح كتم السرّ، وذمّ الإذاعة في غاية الكثرة.

والمتحصّل منها أنّ الإنسان بعد أن يكون الغالب عليه حبّ الكتم وكراهة الإفشاء، ينظر بعين العقل، حين وجد مقاماً للإظهار أظهر بمقدار الضرورة، متحرّياً في ذلك امتثال أمرهم عليهم السلام بقولهم: «**لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم**»(١).

واعلم أنّ صفة كتم السرّ تشتمل على أمرين:

أحدهما: كون المؤمن ذا سرّ.

والثانية: أن تكون له ملكة الإخفاء والكتم، بحيث لا تغلبه نفسه على الإفشاء والإذاعة.

وهذا الكلام كلّه في الثاني، وأما الأول فيكفي فيه ما قاله الصادق عليه السلام يوماً للمفضل بن صالح:

«**يا مفضل!.. إنّ لله عباداً عاملوه بخالص من سرّه، فعاملهم**

(١) البحار: ج٢، ص٧٨.

بخالص من برّه، فهم الذين تمرّ صحائفهم يوم القيامة فرغاً، فإذا وقفوا بين يديه ملأها من سرّ ما أسرّوا إليه.

فقال المفضل: يا مولاي، ولِمَ ذلك؟.

فقال: أجلّهم أن تطّلع الحفظة على ما بينه وبينهم»[١].

قال شيخنا أبو العباس أحمد بن فهد في (عدة الداعي) بعد ذكره لهذا الحديث الشريف: لا تغفل عن هذه المقامات الشريفة، التي هي أنفس من الجنة[٢][٣].

وأنا أقول بهذا المعنى يقول القائل، وقد أجاد إذا أراد هذا المراد:

قلوب العارفين لها عيون ترى ما لا يراه الناظرونا

---

(١) المصدر نفسه: ج٦٧، ص٢٥٢.

(٢) عدّة الداعي: ص١٩٤.

(٣) أن يكون المؤمن ذا سرّ في الحياة، من الأمور التي غفل عنها عامة الخلق، فإنهم اكتفوا بعمارة الدنيا، من دون أن يكون لهم سعي متميّز لما يحقّق لهم سعادة الأبد.. إن على كل مؤمن ـ يعتقد بحياة أخرى تتجلّى فيها ثمرة الأعمال ـ أن يحمل همّاً خاصّاً في مجال تحقيق صلة متميزة مع ربّه والتي تُعتبر هي المحور في كل نشاطاته.. ومن الواضح أن طبيعة هذه الصلة تختلف من عبد إلى عبد، بحسب ما أُوتي من قابليات يمنحها له ربّ الوجود، إلى أن يصل الأمر إلى حبيبه المصطفى ﷺ الذي كان له مع الله حالات لا يحتملها ملك مقرّب، ولا نبي مرسل. (المحقق).

وألسنة بإسرار تناجي تغيب عن الكرام الكاتبينا
وأفئدة تطير بلا جناح إلى ملكوت ربّ العالمينا

فهذا ما يتعلق بالسُّنّة **الأولى**.

والثانية: هي مداراة الناس.

وهي السُّنّة عن النبي ﷺ، وقد قدّمنا لك عن علي عليه السلام: أنّ أحبّ الخلق إلى الله من تأسّى بنبيه.

كما وحكمتها كحكمة كتمان السرّ، بل كتمان السرّ على ما فسّرناه نوعٌ من أنواع مدارة الناس.

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام قال: «**قال رسول الله ﷺ: أمرني ربي بمداراة الناس كما أمرني بأداء الفرائض**»، وعنه عن جدّه ﷺ أيضاً قال: «**مداراة الناس نصف الإيمان، والرّفق بهم نصف العيش**»[(١)].

ثم قال الصادق عليه السلام: «**خالطوا الأبرار سرّاً، وخالطوا الفجّار جهاراً، ولا تميلوا عليهم فيظلموكم، فإنه سيأتي عليكم زمانٌ لا ينجو فيه من ذوي الدّين إلا مَن ظنّوا أنه أبله، وصبّر نفسه على أن يُقال إنه أبلهٌ لا عقل له**»[(٢)].

وعنه أيضاً عن جده ﷺ: «**ثلاثةٌ مَن لم تكن فيه لم يتمّ له**

---

(١) الكافي: ج٢، ص١١٧.
(٢) الكافي: ج٢، ص٩٦.

عمل: ورعٌ يحجزه عن معاصي الله، وخُلقٌ يداري به الناس، وحُلمٌ يردّ به جهل الجاهل»[١].

وفي الحديث عن الصادق عليه السلام: «**مَن كفّ يده عن الناس، فإنما يكفّ عنهم يداً واحدةً، ويكفّون عنه أيدٍ كثيرة**»[٢].

فيا أخي!.. ما يصدر من بعض مَن يدّعي الصلاح والتقوى من أني لا أبالي بالناس، ولست محتاجاً، ومَن يكون الناس؟.. إلى غير ذلك من الكلمات التي تصدر منهم في مقام عدم المداراة كلّه من اتّباع هوى النفس، والجهل بطريقة أهل البيت عليهم السلام[٣].

وكثيرٌ من الجهّال يشتبه عليه مقام المداراة للناس في مقام المداهنة، فيتخيّل أنّ المداراة للناس المأمور بها المداهنة.

---

(١) المصدر نفسه: ج٢، ص٩٥.

(٢) المصدر نفسه: ج٢، ص٩٦.

(٣) هذه صورة جميلة من صور الواقعية والالتزام بمنهج أهل البيت عليهم السلام عند المصنف، فإن احتقار الآخرين من المزالق المتعارفة في هذا المجال، وذلك لما يراه السالك من بعض الصور الروحية المشرقة، التي قد تذهله حتى عن تكليفه الذي أمر به عند التعامل مع الخلق.. والحال أنه لو نظر إلى الخلق على أنهم عيال الله تعالى، وأن الإحسان إليهم إنما هو من صور الطاعة لمن خلقهم لما احتقر عبداً ولو كان عاصياً.. فمن المعلوم أنه لو انتفت كل روابط العبودية الاختيارية مع الربّ المتعال، فإنه تبقى رابطة الخالقية والمخلوقية، كآخر حلقة وصل بين العبد وربّه.. (المحقق).

والفرق واضحٌ، فإنّ المداهنة المذمومة هي الموافقة على تحسين القبيح، أو ترك إنكاره رغبةً وطمعاً فيما عندهم، ليتوسّل إلى منافعهم الدنيوية، أو يجلب قلوبهم إليه من دون ملاحظة دفع مفسدة.

ومما يدلّ على حسن الرفق والمداراة، وأنه يجرّ إلى كلّ خيرٍ، الرواية المشهورة للشامي الذي تكلّم بما لا يليق مع علي بن الحسين عليه السلام، لما حملوه إلى يزيد لعنه الله في الشام، فقال الشامي:

الحمد لله الذي قتلكم، وأكذب أحدوثتكم، وأراح الناس منكم.

فلما فرغ من كلامه قال له الإمام عليه السلام: «**يا شيخ!.. أتقرأ القرآن؟**.

قال: نعم.

قال: هل قرأت قوله: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِى ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾(١).

قال: نعم.

ثم قال: هل قرأت قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرًا﴾(٢).

(١) سورة الشورى: الآية ٢٣.
(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

قال: نعم

ثم قال: يا شيخ، قل قرأت قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾[(١)]؟..

قال: نعم.

قال الإمام عليه السلام: **نحن القربى، ونحن أهل بيت نبيك!.**

قال: فرفع الشيخ كفّه إلى السماء، وبكى وتبرّأ من قاتل الحسين، وبكى وتاب»[(٢)].

فانظر كيف جرّه الرفق إلى الخير؟.

والمداراة ترك الإنكار دفعاً للمفسدة، أو لأجل تخفيفها، أو تحرّزاً عن تهييجها، وأين هذا من ذلك.

والمداراة قد تكون لدفع الشرّ ممن تداريه، وقد تكون لاستجلابه إلى الخير، وكلّها في مقامٍ لا محلّ للإنكار، وأما للخوف، أو لعدم التأثير، فحينئذٍ الرفق والبشاشة وتحمّل الأذى، والدفع بالتي هي أحسن هي المداراة، قال الله فيها:

﴿...ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[(٣)].

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٢٦.

(٢) البحار: ج٤٥، ص١٢٩.

(٣) سورة فصلت: الآيتان ٣٤ ـ ٣٥.

ومنها قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[١].

ومنها في الكافي عن الصادق عليه السلام قال: «**إنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم بينا هو ذات يومٍ عند عائشة، إذ استأذن عليه رجلٌ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: بئس أخو العشيرة!..**».

فقامت عائشة فدخلت البيت، وأذن رسول الله للرجل، فلمّا دخل أقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بوجهه الشريف وبشره، وأقبل يحدّثه حتى إذا فرغ وخرج من عنده، قالت عائشة: يا رسول الله!.. بينا أنت تذكر هذا الرجل فيما ذكرته به، إذ أقبلت عليه بوجهك وبشرك!.

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند ذلك: «**إنّ من شرّ عباد الله مَن تكره مجالسته لفحشه**»[٢].. انتهى.. فهذا كله من المداراة التي هي نوعٌ من التقيّة، وقد ورد في مدح التقيّة ما لا يُحصى حتى فسّر قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[٣].

بأنّ المعنى: أعدلكم في التقيّة.. وحتى قالوا إنّ تسعة أعشار الدين في التقيّة[٤].

ويكفيك ما في الكافي عن حمّاد بن واقد الفحّام قال:

(١) سورة طه: الآية ٤٤.
(٢) الكافي: ج٢، ص٢٤٦.
(٣) سورة الحجرات: الآية ١٣.
(٤) الكافي: ج٢، ص١٧٢.

استقبلت أبا عبد الله عليه السلام في طريقٍ، فأعرضتُ عنه بوجهي ومضيت، فدخلتُ عليه بعد ذلك فقلت: جعلت فداك!.. إني لألقاك فأصرف وجهي كراهة أن أشقّ عليك.

فقال لي: «**رحمك الله!.. ولكنّ رجلاً لقيني أمس في موضع كذا وكذا فقال: عليك السلام يا أبا عبد الله، ما أحسن ولا أجمل**»[1].. انتهى.

فانظر لمن لاحظ كيف استحق دعاء الإمام له بالرحمة بترك السلام عليه، وانظر إلى مَن لا يلاحظ المقام، وترك مجاراة الخلق، كيف شكا منه الإمام وقال: «**إنه ما أحسن ولا أجمل**»[2].

فمن هذا الحديث وأمثاله تعرف أنّ إكرام المؤمن بترك إكرامه، حيث يكون إكرامه باعثاً إلى الحسد له وإثارة الفتن.

---

(١) الكافي: ج٢، ص١٧٣.

(٢) من هذه الرواية وأشباهها، تعلم قاعدة مهمّة من قواعد التعامل كما أراده أهل البيت عليهم السلام ألا وهي مراعاة موارد التزاحم، وإن المؤمن لا يأخذ بأمر راجح، ناسياً كل جهات الرجحان الأخرى، فإن مقتضى التعقّل ـ الذي تنادي به الروايات الكثيرة ـ هو أن يقلّب المؤمن الأمر الواحد من جهات شتّى، ليخرج بعد سياسة الكسر والانكسار، بالحصيلة النهائية المتمثلة بما يرضي الله تعالى في النتيجة، وإن كانت هنالك خيارات أخرى مرضية له، لكنها مزاحمة لتلك الحصيلة النهائية.. (المحقق).

وقد يكون إكرامه بالقدح فيه، كما صدر من بعض الأئمة في حقّ بعض الخواص، وهو من باب خرق السفينة لتسلم.

الثالثة: الصبر في البأساء والضرّاء.

ولا ريب أنّ الدنيا سجن المؤمن، فأي سجنٍ جاء منه خير، ولقد قال الصادق لرجل اشتكى عنده الحاجة، فقال له: «**اصبر سيجعل الله لك فرجاً**»، ثم سكت ساعةً، ثم التفت إليه فقال: «**أخبرني عن سجن الكوفة كيف هو؟**».. فقال: ضيّقٌ منتنٌ، وأهله بأسوأ حال.

قال: «**فإنما أنت في السجن، فتريد أن تكون فيه في سعة، أما علمت أنّ الدنيا سجن المؤمن**»(١).. انتهى.

فالمؤمن إما أن يكون من أهل الشوق إلى الآخرة، فيكون أصل بقائه في الدنيا سجناً له، فضلاً عمّا يعرض له من البلاء(٢).

---

(١) الكافي: ج٢، ص١٩٥

(٢) ما أجمله من تشفيق في المقام لذوي المصائب، فإن المصنف بيّن أثر البلاء لجميع الأصناف بدءاً بأهل الآخرة، وانتهاءً بأهل الدين، ولكن شتّان ما بين أثر البلاء على أهل الآخرة، الذي يزيدهم شوقاً إلى الدار الذي لا بلاء فيه ولا عناء، وبين أثره على أهل الدنيا الذي يزيدهم أجراً من دون أن يتحوّل إلى حالة باطنية من الإحساس العميق بالقُرب الإلهي، التي توجب النفحات الإلهية الخاصة بأوليائه، الملتفتين إليه والمراقبين له.. ومن هنا جعلت الآية الصلوات الإلهية =

وإما أن يكون ممن يخشى عليه الميل إلى هذه الدنيا، والرغبة لما فيها، فتأتي رأفة الحكيم فتزعجه منها بأنواع الابتلاء، حتى يتنفر منها ولا يركن إليها، فإنها دار الظالمين.

وإما أن يكون ضعيف العمل، قليل الطاعات، فتأتي رأفة الحكيم الرحيم أن لا يحرمه ثواب الابتلاء بالمصائب، وقد قال الصادق عليه السلام: «**لو يعلم المؤمن ما له من الأجر في المصائب، لتمنّى أنه قُرّض بالمقاريض**»[1].

وقال الصادق عليه السلام: «**من ابتُلي من المؤمنين ببلاءٍ فصبر عليه، كان له مثل أجر ألف شهيد**»[2].

وقال الصادق عليه السلام: «**إنه ليكون للعبد منزلة عند الله عزّ وجلّ، فما ينالها إلا بإحدى خصلتين: إما بذهاب ماله، أو ببلية في جسده**»[3]. . انتهى.

فالابتلاء إما أن يكون للمؤمنٍ مثوبة ورفع درجة، أو عقوبة وكفّارة، وكلاهما حسنٌ محبوبٌ عند العاقل.

= نازلة على القانعين ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾. . ومن المعلوم أنه لا يُراد به القول المجرّد من دون وجدان حالة الارتباط بالمالك المطلق والإحساس بعمق الانتماء إليه. . . (المحقق).

(١) الكافي: ج٢، ص١٩٨.

(٢) المصدر نفسه: ج٢، ص٧٥.

(٣) الكافي: ج٢، ص١٩٩.

أما الثواب فواضحٌ، وأما العقاب فلما اشتملت عليه أخبار أهل البيت عليهم السلام من أن الله أكرم من أن يجمع على عبده المؤمن عقوبتين، فكلّ شيءٍ عاقبه عليه في الدنيا فلا يعاقبه عليه في الآخرة.

فإذا كان لا بدّ للمؤمن من الابتلاء فلا بدّ له من الصبر، وقد خلق الله الصبر قبل أن يخلق البلاء، ولولا ذلك لتفطّر قلب المؤمن كما تتفطّر البيضة على الصفا.

وفي الكافي عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**الصبر ثلاثة: صبرٌ عند المصيبة، وصبرٌ على الطاعة، وصبرٌ عن المعصية**».

فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها، كتب الله له ثلاثمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء والأرض.

ومن صبر على الطاعة، كتب الله له سبحانه ستمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش.

ومن صبر عن المعصية، كتب الله له تسعمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش(١).

وفي الكافي أيضاً عن الصادق عليه السلام: «**إنّا صبّرٌ وشيعتنا أصبرُ منّا**».

قلت: جعلت فداك!.. كيف صار شيعتكم أصبر منكم؟.

---

(١) الكافي: ج٢، ص٧٥.

قال له: «**لأنا نصبرُ على ما نعلمُ، وهم يصبرون على ما لا يعلمون**»[١] .. انتهى.

انظر إلى رأفتهم!.. كيف شكر لشيعتهم، ما يقع منهم من الصبر القليل على المصائب الجزئية بالنسبة إلى مصائبهم.

يريدون أن يلحقوا بهم شيعتهم، كي لا ينقطعوا عنهم فيهلكوا ويضمحلوا، فإنهم علموا أن لا نجاة لشيعتهم إلا بأن يحسبوهم منهم، ويجعلوا أنفسهم مع شيعتهم صفةً واحدةً، فحينئذ لا يمكن ردّ الجميع، فلا بدّ من قبول الجميع.

أما إذا كان لكلّ واحدٍ حكمه، هلكت شيعتهم لا محالة، فصار أقصى همّتهم، ونهاية مرادهم من شيعتهم، أن يتشبّهوا بهم تشبّها صورياً، كما قال أمير المؤمنين من أنّه: «**من تشبّه بقومٍ أوشك أن يكون منهم**»[٢].

ثم يتمّون ذلك بالشفاعة والدعاء، ففي دعاء الصاحب ـ عجّل الله فرجه وجعلني فداه ـ الذي سمعه السيد ابن طاوس يدعو به لشيعتهم في السرداب المقدّس ما معناه، وقد غاب عني بعض ألفاظه:

اللهم!.. إنّ شيعتنا منّا، خُلقوا من فاضل طينتنا، وعُجنوا بنور

---

(١) المصدر نفسه: ج٢، ص٧٦.
(٢) نهج البلاغة: الحكمة ٢٠٧.

ولايتنا، فولّنا أمورهم، واغفر لهم ما فعلوه من ذنوبهم، اتّكالاً على محبّتنا، وإن خفّت موازينهم، فثقّلها بفاضل حسناتنا[(١)(٢)].

انظر إليه ـ عجّل الله فرجه وجعلني فداه ـ كيف يبالغ بالاهتمام بخلط شيعتهم بهم، حتى لا يختزلوا دونهم، فتارةً: أنهم في أصل الخلقة منهم، وتارةً بأن الذنوب الصادرة منهم منشؤها الاتكال على محبتهم، وتارةً التضرّع إلى ربّه في تكميل نقصهم بفاضل حسنات ساداتهم ومواليهم.

فيا أخي!.. هم يعلمون ما لا نعلم، وهم الذين قالوا: «**لا تنظروا إلى المعصية، ولكن انظروا إلى مَن عصيتم**»[(٣)].

---

(١) البحار: ج٣٥، ص٣٠٣ باختلاف

(٢) تأمّل في عمق الرابطة العاطفية بين المعصوم في كل زمان، وبين رعيّته الذين يُحشرون تحت لوائه يوم القيامة كما أشارت الآية الكريمة ولا عجب في ذلك، فإن الإمام متخلّق بأخلاق الله تعالى في أقصى درجة، تحتمله القابلية البشرية. ومن المعلوم، أن صاحب الأمر عليه السلام في زمان الغيبة غير غافل عمّا يجري على أمة جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم لأنه المهتمّ بحوادث هذا العصر بكل مراراتها، كما كان جدّه أمير المؤمنين عليه السلام متألّماً لما يجري في اليمامة أو الحجاز من بطون غرثى وأكباد حرّى.. ومن هنا لزم على المحب الصادق أن لا يزيده همّاً إلى همّه.. بل يسعى للتخفيف عن همومه بالعمل بما يوجب رضاه من تفريج الكروب عن مواليه، أضف إلى المبالغة في الدعاء له بالفرج إذ لا فرج لعامة الخلق إلا بظهوره عليه السلام.. (المحقق)

(٣) البحار: ج٧٤، ص٧٧.

فلعلمهم بخطر معاصينا، وشدّة خوفهم علينا من الهلكة، أرشدونا إلى أنّ طريق النجاة المرجوة فيه السلامة إنما هو: بذل الجدّ والجهد في التشبّه بهم مهما أمكن، بحيث يجعل الإنسان همّه في أن لا يفارقهم طرفة عينٍ، لما ذكره الرضا عليه السلام بأن يكون اكتفاؤه من المؤمن سنّةً من وليّه.

مراده بها أنّ هذه السنّة تستجمع السنن كلّها، بحيث إنّ الصبر بمراتبه الثلاث التي هي: الصبر في المصيبة، وعلى الطاعة، وعن المعصية، لا يُبقي بقية من السنن إلا وقد تضمّنها.

وقد ورد التصريح في الأخبار الواردة في المتعة: بأني أكره للرجل منكم أن يترك خلّةً قد فعلها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ففي الفقيه عن بكر بن محمد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن المتعة.

فقال: «**إني لأكره للرجل المسلم أن يخرج من الدنيا، وقد بقيت عليه خلةٌ من خلال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يقضها**»[(١)].

وروي: «**أن المؤمن لا يكمل حتى يتمتع**»[(٢)].

وعن الصادق عليه السلام مرسلاً: «**إني لأكره للرجل أن يموت**

(١) الفقيه: ج٣، ص٤٦٣.
(٢) المصدر نفسه: ج٣، ص٤٦٦.

وقد بقيت عليه خلّة من خلال رسول الله ﷺ لم يأتها»[(١)] . . انتهى[(٢)] .

وهو يدلّ على أنهم لا يؤثرون عن شيعتهم الإخلال بسنّة من سننهم، وأن من فعل ذلك، فقد تعرّض لدخول المكروه عليهم، أعاذنا الله وإخواننا من ذلك، ووفّقنا لإدخال السرور عليهم.

ولا بأس بالإشارة إلى نبذةٍ من سننهم التي اشتدّ بها اعتناؤهم، بحيث ظهر منهم الالتزام والاهتمام بها على حدّ الاهتمام بالواجب،

---

(١) المصدر نفسه: ج٣، ص٤٦٦.

(٢) ولكن لا ينبغي الغفلة عن قانون التزاحم في المستحبات. . فإن الروايات بلسانها الأولى تدعو إلى الخلال الحسنة تاركة تقييم ظروف العمل بها بيد المكلّف، معتمداً على بصيرته ومعرفته بالقواعد الأخرى الشرعية. وكمثال على ذلك نقول: إن روايات المتعة ـ كما ذكرها المصنّف ـ تدعو إلى إحياء هذه السُّنّة، والتي تستنبطن علاج مشكلة قائمة في الحياة المعاشة، لا تُحلُّ إلّا بالزواج الدائم، أو المنقطع، أو السفاح، ولا مجال للمقارنة بين الحرام وبين السُّنّة التي نادى بها النبي ﷺ والأئمة من ذريته عليهم السلام. . ولكن في المقابل نلاحظ نصّاً آخر يبيّن ضرورة الالتفات إلى المقارنات الأخرى عند العمل بالسُّنّة، وذلك كما روي عن أبي الحسن عليه السلام، أنه قال لبعض مواليه: «**لا تلحّوا على المتعة، إنما عليكم إقامة السُّنّة، فلا تشتغلوا بها عن فرشكم وحرائركم، فيكفرن ويتبرّين ويدّعين على الآمر بذلك ويلعنوننا**» (الوسائل: ج١٤، ص٤٥٠). . (المحقق).

عسى أن يوفّقنا الله للتأسّي بهم في الالتزام بها، إلّا مع المانع القوي، والمعارض الأهم.

فمنها: الوفاء بالعهد

فيفهم من طريقتهم عليهم السلام أنّ المؤمن ينبغي أن لا يلتزم بالوعد، حذراً من عروض العوارض، فيقع في إخلاف الوعد، وهو محذورٌ عظيمٌ في نظرهم عليهم السلام(١).

فما دام لا يمكنه التحكّم بالعوارض لا يَعِدْ، فإذا وعد يلتزم بوعده، ولا يتخلّف عنه، فمن تخلّف عن وعده فهو مباين لطريقة أهل البيت عليهم السلام، ويخرج بذلك عن شعارهم، ويدخل في شعار غيرهم، (العياذ بالله).

ويرشدك إلى تصديق هذا المعنى إيصاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام بقضاء ديونه، وإنجاز عداته.

---

(١) لاحظ تعبير المؤلف المشعر بالتشديد في هذا المجال، رغم أنه لم تثبت الحرمة الشرعية ـ فقهاً ـ للإخلال بالوعد وخاصة مع العزم على الوفاء عند الوعد ثم طروء العارض.. فالمؤمن المراقب يصل إلى درجة يرى أن كلّ قبيح ومكروه عند المولى ـ وإن لم تثبت حرمته الإلزامية ـ ممّا ينبغي تماشيه خوفاً من سخط المولى ولو بدرجة تناسب ذلك المكروه.. فإن المحبّ يتحاشى موجبات كراهة حبيبه وإن لم يُلزمه بذلك ،كما نلاحظ في تعامل المحبّين من أهل الدنيا.. فكيف بمن الحبّ رشحة من رشحات لطفه وفضله!!. (المحقق).

فلو لم يكن عنده معاملاً معاملة الدَّين، وملتزماً به التزام مشغول الذمّة به، لكان من أعظم الأعذار فيه عروض الموت، وفوات التمكّن، فلم يحتج إلى إلزام الوصي به على حدّ إلزامه بالديون.

ولقد أجاد من قال شعراً:

إن الفتى من بدا منه الجميل بلا
وعد ومن أنجز الميعاد نصف فتى
ومن تخلّى عن الأمرين فامرأة
ونصف امراة من خُلقه ثبتا

واعلم أنّ مرادنا من الالتزام بوفاء الوعد الذي هو طريقة أهل البيت عليهم السلام، إنما هو ما كان من عروض الموانع والأعذار، على وجهٍ يبقى معه إمكان الوفاء.

أما مع عدم عروض الموانع فذلك لا كلام فيه، لأنّ الإخلال بالوعد لا لداعٍ، نقصٌ وقبحٌ لو صدر من أقلّ الناس، فلا يليق أن يُعدّ التحرز منه في خواص أهل البيت عليهم السلام التي تريد الحثّ على الاقتداء بها.

منها: الإحسان التبرعي فوق الواجب وفوق ما حصل به الوعد

إذ هو عندهم كالواجب، فعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان حسن الوفاء، بمعنى أن عادته الشريفة مستمرةٌ على أنه إذا استدان يُعطي قدراً زائداً فوق الدين، بحيث إنه قد عُرف بهذه العادة.

وأما أهل بيته فسجيّتهم الكرم، وعادتهم الإحسان، كما في الزيارة الجامعة، وهم الممثلون لنص ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾(١).

وعن علي عليه السلام: أنّه أعتق ألف مملوك من كدّ يمينه(٢).. وكان لا يكتفي بعتقهم، بل يبذل لهم بعد العتق وصلة إلى التعيش والاكتساب.

وكذلك لما وعد الأعرابي بمكة بأربعة آلاف درهم، باع له الحديقة التي غرسها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأعطاه الوعد وأفضل عليه(٣).

والإحسان التبرّعي فوق الدّين، أو فوق الوعد، له موقع في النفوس، ولو كان بشيء جزئي، ويُفهم من طريقة أهل البيت عليهم السلام الالتزام به(٤).

---

(١) سورة النحل: الآية ٩٠.
(٢) البحار: ج٦٣، ص٣٢٠.
(٣) البحار: ج٤١، ص٤٥.
(٤) إن على المؤمن أن يستوعب فقه الإنفاق بجميع جوانبه الشرعية والأخلاقية، ومن ذلك الإحساس، بأن ما ينفقه إنما هو تصرّف في ملك مولاه بإذنه بل بطلب منه، فلا داعي للعجب بعد ذلك، لأن ما قد يستحق العجب عليه هو الإنفاق من الملك الحقيقي لا الملك الاعتباري، ولهذا تراهم ينفقون وقلوبهم وجلة لأنهم سيرجعون إلى ربّهم وسيسألهم عمّا أنفقوا ـ ولو في الصالحات ـ وذلك لإمكان وجود الخلل في أصل اكتساب المال أو في طريقة إنفاقه.. ومن فقه =

ومنه: الإيثار على النفس ولو مع الخصاصة

قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[١].

واعلم!.. أنّ المؤمن ما لم يلتزم بالإيثار على النفس، ويجعل همّه ذلك، فلا بدّ أن يغلبه حبّ النفس وهواها على الحيف، وترك الإنصاف، ولو في بعض الأحيان، فلا يكون مؤمناً، لأنّ المؤمن من أَمِنَ الناس شرّه.

بخلاف من ألزم نفسه بالإيثار، فإنّ غاية ما تنازعه عليه نفسه ترك الإيثار، فإن فاته الإيثار فلا يفوته أصل أداء الحق، فعلى كلّ تقديرٍ يكون الظلم مأموناً منه[٢].

وهذا قليلٌ من كثيرٍ، والاقتصار على هذا المقدار أولى.. والله المستعان، وحسبنا الله ونِعْمَ الوكيل.

= الإنفاق عدم اتّباع ما أنفقه بالمنّ والأذى، فإنه من لوازم عدم الإحساس بحقيقة أنه مُستخلف في ذلك المال.. (المحقق).

(١) سورة الحشر: الآية ٩.

(٢) هذه لفتة جميلة من المؤلف.. فجعل للمؤمن دوائر آمنة فوق الدوائر الخطرة، فإنه دعا للإيثار الذي لو خانته نفسه فيه بقي أصل إنفاقه مأموناً من التفريط فيه، وهذا هو الأسلوب الذي ينبغي اتّباعه في كل المجالات الأخلاقية، فيمتّع السالك نفسه ببعض صور الحلال المشتبه كالنظر إلى اللغو وإلى ما قد يحرم ـ فتطاوعه نفسه فيما هو حرام قطعاً، كالنظر إلى المحرمات.. (المحقق).

الباب التاسع

في الرضا بالقضاء

اعلم كما قدّمنا أنّ مدار ترقّي المؤمن على تأسيّه بالنبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام.. وقد روي في الكافي عن ابن أبي يعفور عن الصادق عليه السلام قال: «**لم يكن رسول الله يقول لشيء قد مضى: لو كان غيره**»[١].. انتهى.

انظر إلى تحرّجه إلى تمنّي خلاف الواقع، حذراً من الوقوع فيما ينافي الرضا.

فالمطلوب من المؤمن توطين نفسه على الرضا بالواقع كيف كان.

واعلم أنّ منشأ عدم الرضا، وتمنّي خلاف الواقع، إنما هو الجهل بحِكم الأشياء ومصالحها، فلو ظهرت له حكمة الأشياء لما تمنّى الإنسان غير الواقع.. فإذا عوّد المؤمن نفسه على التأمّل في حِكم الأشياء ومصالحها، يظهر له كلّ كثيرٍ منها، ويسهل عليه

---

(١) الكافي: ج٢، ص٥٢.

الرضا، وما لم يظهر له وجهه يمكن أن يجعله من باب إلحاق المجهول بالأعمّ الأغلب(١).

ولكلّ شيءٍ مصالحُ عديدةٌ، وحِكَمٌ كثيرةٌ، فمهما توجّه الإنسان إلى ربه، وطلب منه إظهار بعض وجوه الشيء، أظهر له على حسب استعداده وقابليته، وطلبته وإرادته.

وهذا أقرب الطرق في تحصيل الرضا بالقضاء.

وأما توطين النفس على الرضا بالشيء ـ ولو مع إخفاء حكمته والجهل بها ـ ففيه صعوبةٌ بالنسبة إلى ما ذكرناه.

وقد نقل أن مولانا الحسن بن علي عليه السلام علّم بعض الشيعة في عالم الطيف، أنه ينال ما يريده من نهاية القرب منهم، والتمكّن من رؤيتهم مهما أراد، بالاتصاف بما في هذه الأبيات وهي قوله:

---

(١) إنّ إصرار العبد على حاجةٍ من الحوائج فرع اليقين بخواتيم الأمور، واليقين بأنّ قضاء تلك الحاجة ممّا يختم له بالسعادة، والحال أنّ العبد لم ينكشف له ما يوجب له مثل هذا اليقين، وعليه فما الموجب للإصرار الذي يجعله متبرّماً من قضاء الله وقدره في تأخير الاستجابة لحاجته؟! إنّ العبد الذي لا يرى إلّا قضاء حاجته يتهم الله ـ وإن لم يعتقد بذلك شعوراً ـ في حكمته البالغة التي اقتضت تأخير الاستجابة، أو تأجيلها إلى الآخرة بأضعافٍ مضاعفةٍ، حيث يتمنّى العبد معها أنه لو لم تُقضَ له في الدنيا حاجة واحدة. (المحقق).

كن عن همومك معرضاً وكل الأمور إلى القضا
فلربما اتّسع المضيق ولربما ضاق الفضا
ولربّ أمر مسخط لك في عواقبه رضا
الله يفعل ما يشاء فلا تكن معترضا
الله عودك الجميل فقس على ما قد مضى

فلعمري إنّ هذه الأبيات فيها الشفاء من كلّ داءٍ لمن عمل بها، وعمدتها تحصيل درجة الرضا بالقضاء ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(١).

وقد اشتملت هذه الأبيات الشريفة الصادرة من ينبوع الحكمة، ومعدن العصمة، على طُرفٍ من الإرشاد إلى تحصيل هذه الرتبة السنيّة.

فمنها كون الإنسان معرضاً عن همومه، وهو من أعظم المقدّمات لينال هذه الدرجة، فإنّ واردة الهموم أعظم شيءٍ إفساداً للقلب، والقلب وقت اشتغاله بها معرضٌ عن ربه، مشغولٌ عن التوجّه إليه سبحانه بما فيه من الهموم والأحزان، فتظلم أقطار القلب وجوانبه بإعراضه عن باريه، وتنهدّ بُنية الجسد، وربما يؤثر مرضاً شديداً، مؤدياً إلى الهلاك والعطب.

ثم بعد اليأس والعجز عن التدبير، وانقطاع الحيل والآمال،

(١) سورة فصلت: الآية ٣٥.

ترى الإنسان يقول: (على الله) ،كأن الله وكله إلى تدابيره التي لا تسمن ولا تغني من جوع.

وكل هذا ناشئٌ من الجهل بمراد الله، وبطريقة أهل البيت عليهم السلام، ومن الأنس بما اعتادته النفس الأمّارة.

والذي أرشد إليه أهل البيت عليهم السلام، أنّ الواجب على المؤمن أن يُعوّدَ نفسه على الإعراض عن الهموم، حتى يتفرّغ قلبه للتوجّه إلى باريه، قال الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾(١).

فالقلب إذا توجّه إلى ذكر الله، وعطفه ولطفه، ورأفته ورحمته، فرّت عنه الهموم والأحزان والغموم.. فإنما تنشأ من الالتفات إلى جانب النفس وإجراء الأمر على ما يقتضيه حالها من العجز، والضيق والتحيّر بكلّ شيءٍ، والحرص على ما في يدها(٢).

---

(١) سورة الرعد: الآية ٢٨.

(٢) إنّ مشكلة الهموم والغموم من موجبات الضنك في المعيشة، وخاصةً في هذا العصر الذي كثُرت فيه متطلبات الإنسان، مع الخيبة في تحقيق أكثرها، ممّا يوجب انتكاسةً بعد كلّ خيبةٍ.. ومجموع هذه الانتكاسات يوقع الإنسان في حالة من الكآبة المزمنة والقلق الدائم، والحلّ الوحيد لذلك ما ذكره المصنّف من ترك الحرص، وعدم الالتفات إلى ما يورث الهمّ والغمّ، وذلك بعدم الالتفات إلى ما سوى الله تعالى، الذي إذا عَظُمَ في قلب العبد صَغُرَ ما دونه في =

وأما مع الالتفات إلى حفرته الأحدية التي كل بعيد عندها قريبٌ، وكلّ صعبٍ عندها سهلٌ، ونسبة الأشياء إليها على سواء، ومقتضاها الرأفة والرحمة فأين الهمّ والغمّ؟. . ولماذا يكون الأسف والحزن؟.

فإن كان على ما فات لا يعود، فهو يخلفه بأضعافٍ مضاعفة، فربما كان فوته تجارة لا خسارة، حيث فاتك واحد وعُوّضت عنه بألف، أو بالآلاف، أو بما لا عدد له ولا نهاية.

فيا أخي!. . لا راحة للقلب حقيقة إلا عند ذكر الله، ولا اضطراب له إلا عند التفات النفس إلى عالم الضيق، والحرص والبخل، واليأس من الروح والراحة.

فالإعراض عن الهموم يكون باعثاً على التوجّه إلى الحيّ القيوم، أو يكون منبعثاً عن التذكر الفارج للهموم، والكاشف للغموم.

فأقلّ ما يتوسّل به إلى تحصيل الرضا بالقضاء، هو إلقاء الهموم والغموم عن القلب، وتفريغ البال للتوجّه إلى حضرة ذي الجلال.

فعند ذلك نشاهد ألطافه الخفية والجليَّة، وضمانه لعبده الكفاية

= عينه، وعندئذٍ يتحقق الاطمئنان الذي يوجبه الذكر، بالمعنى الذي أراده القرآن الكريم. (المحقق).

في الأمور الكلية والجزئية، وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[١].

فلا تجد مناصاً عن إيكال الأمور إلى قضائه، فإنّ الله عزّ وجلّ وإن أمر بالأسباب، لكنه لم يأمر مطلقاً، بل بشرط عدم الاعتماد عليها، وترْك الاتكال عليها، فيكون الإتيان بالأسباب حينئذٍ امتثالاً لأمره، فإن أثّرتْ فبإذنه عزّ وجل، وأن لم تؤثّر فالعبد قد امتثل، وفرغ عن عهدة التكليف، وعلى الحكيم أن يفعل ما تقتضيه حكمته، وعلى العبد أن يَكِل الأمر إلى قضائه، فيصبر له، أو يسلّم، أو يرضى.

فالقضاء إن كان بالمحبوب فهو المحبوب، وإن كان بما تكره النفس فالواجب على العبد أن يسلّي نفسه بأنه ربما اتسع المضيق، وربّ للتكفير في هذا المقام بقرينة المقام، وربما ضاق الفضاء وهو أيضاً كثير.

فالحكيم لا بدّ أن يقلّب على عبده الأحوال، لئلّا يطمئن إلى حال، ومراده أن يكون منقطعاً إليه في كل الأحوال.

حيث إنه في حال اليُسر لا يأمن تبديله في كل دقيقة، فلا بدّ في كل دقيقة من الانقطاع إليه في تلك الدقيقة، وهكذا[٢].

---

(١) سورة الزمر: الآية ٣٦.

(٢) من هذا البيان يُعلم أن المؤمن الذي يستثمر البلاء في جهة الانقطاع =

وكذلك في حال العسر والانقطاع، يكون العبد إليه أحوج لعجزه وضعفه عن تحمل البلاء.

فإن كان لا بدّ من تقليب الأحوال على هذا العبد، فلا بدّ من تسلية النفس بأنّ هذه الأحوال لا تدوم، وكثيرٌ فيها التقلّب والتبديل، فينبغي أن لا يعتدّ بفرحها ولا يؤثّر من فرحها، وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾[1].

ويضاف إلى هذا في التسلية، بأنّ أكثر هذه الابتلاءات اختبارات.. فإذا انكشف حال العبد إما بالصبر، أو بالعجز، أو بالضجر، وعرف من نفسه ذلك رفع الله عنه ذلك، وجعل عاقبة أمره يسراً[2]، وهو قوله:

= إلى الله تعالى، لا يستوحش من البلاء فحسب، بل يرحّب بمثل هذا البلاء الذي يسوقه نحو مولاه سوقاً حثيثاً، وهذا هو السبب في عدم اضطراب سرّ الأولياء في أحلك الظروف، بل هذه من المقامات والحالات التي لا يستوعبها أهل الدنيا فضلاً عن إدراكها. (المحقق).

(١) سورة الحديد: الآية ٢٣.

(٢) هذه بديعة من بدائع المؤلف، فقد جعل للبلاء إحدى الثمار المذكورة، ثم بعث الأمل في النفوس ـ التي لا تريد دوام البلاء ـ قائلاً بأنه إذا حصلت الثمرة وتحقّقت النتيجة، فإن الله تعالى سيرفع البلاء الذي استهدف إحدى الثمار المذكورة ومعنى ذلك أن من طُرُق تحصيل العافية، هو تحقيق تلك الثمار قبل البلاء وذلك بالمجاهدة =

ولربّ أمر مسخط لك في عواقبه رضا

والاختبار غالباً مجرد حصول وقوع الابتلاء، من دون حاجةٍ إلى طول المدة، فإذا كانت المدة قصيرة، والعاقبة لما فيه رضاه هان الخطب.

وأما قوله:

الله يفعل ما يشاء فلا تكن معترضا

ففيه تحذيرٌ من الاعتراض على قضاء الله، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**من أصبح على الدنيا حزيناً، فقد أصبح لقضاء الله ساخطاً**»[(١)].

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام: أن الحسن بن علي عليه السلام لقي عبد الله بن جعفر فقال: «**يا عبد الله!.. كيف يكون المؤمن مؤمناً وهو يسخط قسمه، ويحقّر منزلته، والحاكم عليه الله؟.. وأنا الضامن لمن لا يهجس في قلبه إلا الرضا أن يدعو الله فيستجيب له**»[(٢)].

وأما قوله:

الله عوّدك الجميل فقس على ما قد مضى

= الباطنية، وكثرة التأمّل في أحوال النفس، والاعتراف بين يدي الله تعالى بالمسكنة والضّعف. (المحقق).

(١) قصار كلماته: ٢٢٨ .. كذا في نهج البلاغة.

(٢) الكافي: ج٢، ص٥١.

ففيه كمال التأمّل بتذكر عوائد الله الجميلة، وألطافه الجليلة، التي بملاحظتها يحصل للعبد علم عادي، بأنّ الله لا يخليه إذا انقطع إليه فيما دهاه من الفوادح، من عطفة من عطفاته يحيي بها الموات، ويردّ بها ما قد فات، وقد اشتمل على هذا المعنى والمعنى الذي قبله شعرٌ منسوبٌ في مصباح الشريعة إلى مولانا علي عليه السلام:

رضيت بما قسم الله لي
وفوّضت أمري إلى خالقي
كما أحسن الله فيما مضى
كذلك يحسن فيما بقي

والأخبار الواردة في الحثّ على الرضا أكثر من أن تُحصى.

فمنها الحديث القدسي المشهور أن الله تعالى يقول: «**لا إله إلا أنا، من لم يصبر على بلائي، ولم يرض بقضائي، فليتخذ ربّاً سواي**»(١).. وكفى بهذا التهديد الإلهي واعظاً لمن عقل، ومنبّهاً لمن جهل.

وعن الحسين بن خالد، عن الرضا، عن أبيه، عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**قال الله عزّ وجلّ: من لم يرض بقضائي، ولم يؤمن بقدري، فليلتمس إلهاً سواي**»(٢).

---

(١) البحار: ج٧٩، ص١٣٢.
(٢) التحفة السنية: ص٤٧.

قال: قال رسول الله ﷺ: «**في كل قضاء الله عزّ وجلّ خيرة للمؤمن**»(١).. انتهى.

واعلم يا أخي ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾(٢). والقضاء أول ما يرد على العبد يرد بطور الإجمال، يعني بحيث يمكن أن يكون نعمة وأن يكون نقمة، وإن كان ظاهره أنه من نوع الابتلاء والعقوبة.

فإذا أحسن الظنّ العبد بربه، وتفاءل بالخير، ووطّن نفسه على الرضا بالقضاء، قلب الله ما ظاهره أنه نقمة، وبدّله نعمة وأجرى الأمر على ذلك، وبالعكس العكس(٣)

فالعبد لا زال بسوء ظنّه، وقلّة رضائه بالقضاء، وشدة انزعاجه من واردات الابتلاء، يستجلب لنفسه بلاءً فوق بلاء، ويقلب ما عليه نعمة إلى الوبال والنقمة.

---

(١) البحار: ج٦٨، ص١٣٩.

(٢) سورة الرعد: الآية ٣٩.

(٣) هذا هو الفرق بين العامة والخاصة من الخلق، فإن العبد الساذج الذي لا يعرف مُراد المولى وحكمته في سياسة الخلق، يجمع بين ثقل البلاء ووزر التبرّم به، فيخسر بذلك صفقة الدنيا والآخرة، وأما الخواص الذين فتح الله تعالى لهم أبواب معرفته، يحوّلون كل ما يرد عليهم في هذه الدنيا ـ نعيماً كان أو بلاءً ـ إلى زادٍ في الآخرة، وشتّان بين عملين: عملٌ تذهبُ لذّته وتبقى تبعته، وعَملٌ تذهبُ مؤونته ويبقى أجره. (المحقق).

وفي (الجواهر السنية) عن الرضا عليه السلام، عن أبيه عليه السلام، عن آبائه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

أوحى الله إلى نبيٍّ من أنبيائه أن: أَخبر فلاناً الملك أني متوفّيه إلى كذا وكذا.

فأتاه ذلك النبي فأخبره، فدعا الله الملك وهو على سريره حتى سقط من السرير، فقال: يا رب، أجّلني حتى يشب طفلي، وأقضي أمري.

فأوحى الله إلى ذلك النبي: أن ائت ذلك الملك، فأعلمه أني قد أنيت في أجله، وزدت في عمره خمس عشرة سنة.

فقال ذلك النبي: يا ربّ، أنت تعلم أني لم أُكذّب قط، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: إنما أنت مأمورٌ، فأبلغه ذلك، والله لا يُسأل عما يَفعل(١).. انتهى الحديث الشريف.

فلا شكّ أنّ الانقطاع إلى الله عزّ وجلّ، والالتجاء إليه، وحسن الظنّ به، ومبادرة الأمر بالصدقة، والدعاء، وصلة الرحم، لها تسبّبٌ في تبديل واردات القضاء.

اللهم!.. إن كنت عندك شقياً، أو محروماً مقتراً عليّ رزقي، فاكتبني عندك سعيداً مرحوماً، دارّاً عليّ رزقي، فإنك قلت في

---

(١) الجواهر السنية: ص١٢٣.

كتاب: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وصلّى الله على محمد وآله الطاهرين(١).

فيا أخي!.. كيف لا يرضى العبد بقضاء ربّه؟.. وقد روى الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّ الله يقول:

«يا بني آدم!.. كلكم ضالٌّ إلا من هديت، وكلكم عائلٌ إلا من أغنيت، وكلكم هالكٌ إلا من أنجيت، فاسألوني أكفكم وأهدكم سبيل رشدكم.

إنّ من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلا الفاقة، ولو أغنيته لأفسده ذلك.

وإنّ من عبادي من لا يصلحه إلا الصحة، ولو أمرضته لأفسده ذلك.

وإنّ من عبادي لمن يجتهد في عبادتي وقيام الليل لي، فألقي عليه النعاس نظراً مني له، فيرقد حتى يصبح، ويقوم حين يقوم وهو ماقتٌ لنفسه، زارٍ عليها، ولو خلّيت بينه وبين ما يريد لدخله العجب بعمله، ثم كان هلاكه في عجبه ورضاه عن نفسه، فيظنّ أنه قد فاق العابدين، وجاز باجتهاده حدّ المقصّرين، فيتباعد بذلك مني وهو يظنّ أنه يتقرّب إليّ به.

ألا فلا يتّكل العاملون على أعمالهم وإن حَسُنت، ولا ييأس

(١) البحار: ج٨٧، ص١٣٥.

المذنبون من مغفرتي لذنوبهم وإن كَثُرت، ولكن برحمتي فليثقوا، ولفضلي فليرجـوا، وإلى حسن نظري فليطمئنّوا، وذلك أني أدبّر عبادي بما يُصلحهم، وأنا بهم لطيفٌ خبير»[١] . . انتهى الحديث الشريف.

---

(١) البحار: ج٦٨، ص١٤٠.

دقائق الملاحظات
مما نبّه عليه أهل البيت عليهم السلام شيعتهم

في باب الرضا بالقضاء

واعلم أنّ لأهل البيت تنبيهات على مقامات عالية في الرضا بالقضاء، فهنيئاً لمن تنبّه لها، وعثر عليها، فإنها من كنوزهم عليهم السلام التي أودعوها صفحات الكتب، عسى أن تصل إلى أهلها مع علمهم بقلّتهم، وقليلٌ ما هم، وقليلٌ من عبادي الشكور.

فرجونا أن يشرّف الله كتابنا هذا، بجمع نبذٍ منها ما لم يجتمع في غيره، فإنّ عمدة قصدنا فيه الإشارة إلى ما لم يُسطّر، أو الانتقاد لما قد سطر، ما لم يصدر من عين صافية.

فمنها أنهم ألزموا أنفسهم بعدم الانتصار لأنفسهم في مقامات الابتلاء، بل يتلّقون البلاء بالتسليم والصبر، حتى يجيئهم الأمر الخاص بتدارك وارد البلاء، ودفعه بالدعاء.

ولذلك كان يظهر عليهم في بعض الأحوال حال الخضوع لله والانكسار بين يديه، لفقد أدنى الأشياء من الغذاء والماء، مع تمكينهم من كلّ شيءٍ بالدعاء، فما ذلك إلا لما لزموا به أنفسهم

وقيدوها بعدم الانتصار لأنفسهم بالدعاء، وترجيح جانب الصبر عليه، مع تخييرهم بين الاصطبار والانتصار، إلا أنّ أفضل الفردين عندهم الاصطبار، وهم لا يتركون الأولى أبداً حتى يجيئهم الأمر الخاص بترجيح الفرد الآخر.

يفصح عن هذا المعنى قضية علي بن الحسين عليه السلام لما شكا إليه بعض شيعته الحاجة، فبكى الإمام عليه السلام رحمةً له، فقال له: يا سيدي، وهل يُعدُّ البكاء إلّا للمصائب والمحن الكبار؟!.

فقال له: «**وأي محنةٍ ومصيبةٍ أعظم من أن يرى المؤمن بأخيه فاقةً ولا يقدر أن يسدّها**».

فخرج ذلك الشيعي من عند الإمام متحيّراً، فبلغه قول النصاب: ما أعجب أمر هؤلاء!.. ساعة يدّعون أنّ السماوات والأرض تطيعهم، وأنّ كلّ شيءٍ بأيديهم، وساعةً يعجزون عن إعانة بعض شيعتهم بشيءٍ يسير!.

فرجع ذلك الفقير إلى الإمام عليه السلام قائلاً: مصيبتي بكلام هؤلاء النصاب أعظم من مصيبتي بفقري، وشدة حاجتي.

فقال الإمام عليه السلام: «**ويلهم!.. أما علموا أنّ لله أولياء لا يقترحون على الله!.. يا عبد الله!.. قد أذن الله بفرجك**»، ثم أعطاه فطوره وسحوره.. ففرّج الله عنه بذلك فرجاً عاجلاً، ورزقه درّةً عظيمةً في جوف سمكة، فباعها بمالٍ غزيرٍ، ثم ردّ القرصين إلى

الإمام عليه السلام[(١)] . . والحكاية مشهورة ومحلّ الشاهد منها قوله: «**أما علموا أنّ لله أولياء لا يقترحون**».

ونظيرها قضية سلمان الفارسي (ره) لما ابتُلي باليهود وهم يضربونه ويقولون: لم لا تدعو الله بمحمد وعلي أن يعجّل بهلاكنا، ويخلّصك من أيدينا؟!.

فيقول لهم: **الصبر أفضل، وأنا أدعو الله أن يصبّرني، ولعلّ الله أن يخرج من أصلابكم مؤمناً، فلو دعوت الله عليكم بالهلاك كنت قد قطعت مؤمناً من الإيمان**»، فلم يدع عليهم حتى انكشف الحجاب بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأمره بالدعاء عليهم، وأخبره بأنه ليس في أصلابهم مؤمن[(٢)] .

والقضية في تفسير الإمام العسكري عليه السلام عند قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾[(٣)] . . من أحبّها فليراجعها فهي من أعاجيب الدهر، ولا عجب من تشبّه بساداته حتى أخبروا عنه أنه منهم أهل البيت عليهم السلام .

ومن هذا الباب قضية المعراج، حيث كلّف النبي صلى الله عليه وآله وسلم بخمسين صلاة فلم يراجع ربّه، حتى سأله موسى عليه السلام المراجعة، فلم يزل

---

(١) البحار: ج٤٦، ص٢٠. باختلاف الألفاظ.
(٢) تفسير الإمام العسكري: ص٦٨.
(٣) سورة البقرة: الآية ٣.

يراجع، ويخفّف عنه وعنهم حتى انتهت إلى خمس صلوات، فسأله موسى المراجعة، فقال: قد استحييت من كثرة المراجعة.

فأوحى الله إليه: «**إنك لما صبرت على الخمسة، فهي لكم عندي بخمسين**»(١).

فكان التماس موسى، بمنزلة الأمر الخاص بطلب التخفيف، وقبل ذلك لم يستبح السؤال، وقد اشتملت الرواية على ذلك صريحاً لما سُئل الإمام عليه السلام: كيف لم يسأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم التخفيف من الله قبل ذلك؟.

والحاصل أنّ كلّ الأنبياء السابقين، ربما يصدر منهم استعفاء من بعض الابتلاءات، أو التكاليف الشاقة المتعلّقة بأممهم.

وأما نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام فلم يتفق لهم الاستعفاء في مقام من المقامات، لكن لتلقيهم الوارد بالقبول، يجيئهم العفو تفضّلاً ببركة التوطين على الالتزام بما فيه المشقة والامتحان، فصارت شريعتهم بسبب ذلك أخفّ الشرائع وأسهلها، حتى قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**جئتكم بالشريعة السمحة السهلة**».

ولقد أجاد عقيل بن أبي طالب بتسليته لأبي ذر حين طردوه إلى الربذة، فخرج معه علي والحسنان وعقيل، مشيعين له، فقال له عقيل في جملة كلامٍ له للتسلية: «**إنّ استعفاءك البلاء من الجزع، وإنّ**

---

(١) البحار: ج١٨، ص٣٤٨ باختلاف.

استبطاءك العافية من اليأس، فدع الجزع واليأس، وقل: حسبنا الله ونِعْمَ الوكيل»[١].

وقد تقدّم لك أنّ هذه المقامات الدقيقة، مأنوسةٌ عند خواص أهل البيت عليهم السلام الذين حظوا بطول الصحبة حتى اقتبسوا من مشكاتهم هذه الأنوار.

ولا يثبطنك الشيطان عن أخذ حظّك من هذه المقامات، بما ألقاه على ألسنة أهل عصرنا هداهم الله، من أنّ هذه المعاني مقصوّرةٌ على أهل البيت عليهم السلام، وهي من خواصهم، فليس الخطاب بها شاملاً لأمثالنا[٢].

ولعمري لقد تاهوا تيهاً شديداً، وضلّوا ضلالاً بعيداً!.. ما

---

(١) البحار: ج٢٢، ص٤٣٦.

(٢) قد وضع المصنّف هنا يده على الجرح إذ أشار إلى تلبيسٍ عظيم من تلبيسات إبليس، فشتّان بين التلبيس في جزئيات الطريق بعد السير فيه، وبين التلبيس الذي يصدّ العبد عن أصل الحركة في الطريق، وهذا هو السرّ في أن السير إلى الله تعالى صار استثناءً لا يتحقّق إلّا للنوادر من العباد، وكان الأصل هو الركون إلى الدنيا، والتثاقل إلى متاعها، والاكتفاء بأقلّ الواجب الذي لا يحقّق روح الشريعة، ولهذا ترى الذين ينكرون ضرورة هذا السير ـ الذي دعا إليه القرآن بقوله ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [سورة المزمّل: الآية ١٩] ـ لا يعيشون حلاوة الشريعة في عباداتها، ولا يحققون التكامل الجوهري في تشريعاتها. (المحقق).

هذه المقامات التي تبلغها عقولنا وأحلامنا إلا لعبيد أهل البيت عليهم السلام، بل لأقلّ عبيدهم.

فأما مقاماتهم الخاصة بهم فأين الثريا من يد المتناول، والأحلام والأفهام عنها بمراحل؟.. ولكن لقول الله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[١].

وقد صار أهل البيت ينسبون كلام الأخلاق، ومعاني الآداب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويحكونها عنه، حثّاً عليها وترغيباً لها، لا أن كل ما يُنسب إليه يكون من خصوصياته، فيبطل الاقتداء، سبحانك هذا بهتان عظيم!.

ونُقل أنّ أبا ذر الغفاري كان يحبّ المرض ويختاره على العافية، لما فيه من الأجر والثواب[٢].. وعن بعض الأئمة عليهم السلام حكى ذلك ثم قال بعده: لكنّا قومٌ العافية أحبّ إلينا من المرض، والمرض وقت المرض أحبّ إلينا من العافية.

وفي هذا الكلام الصادر من ينبوع الحكمة والعصمة، تنبيهٌ على تفضيل درجة الرضا بالقضاء ـ سواء كان بالمحبوب أو بالمكروه ـ على مقام إيثار المكروه على المحبوب رغبةً في ثوابه، وشوقاً إلى جزائه.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

(٢) البحار: ج٧٨، ص١٧٣. مع اختلاف.

ولا شكّ في ذلك، فإنها مع مساواتها لها في إيثار المكروه، وكونه أحب من المحبوب وقت تقديره وحصوله، تزيد على ذلك بعدم اختيار المرض وطلبه عند عدم حصوله ـ وإن كان تمنّيه رغبةً في ثوابه، وإرضاء النفس به، بحيث يصير من المشتهيات من المقامات العالية التي لا تتفق إلا لمثل أبي ذر ـ أن فيه شائبة الاقتراح على الله واعتراضاً على قضائه.

وأراد الإمام عليه السلام إزالة هذا الوهم، والتنبيه على عوز هذه الحكمة، وهو مقام الاعتدال الحقيقي، والاستقامة التامة، التي أشار إلى صعوبتها سيد الكونين بقوله:

«**شيبتني آية في سورة هود**»[١].. وهي قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾[٢].. صدق الله العظيم.

---

(١) جوامع الجامع: ص١٧٠.

(٢) سورة هود: الآية ١١٢.

الباب العاشر

فيما يتبع الرضا بالقضاء
من التوكّل والتفويض والتسليم

اعلم أنّ الإنسان ما لم يسرح نظره في هذه الأبواب، ويأخذ نصيبه منها لا يذوق حلاوة الإيمان، وإن كان لأهل الإيمان فيها مراتب ومقامات، على قدر تفاوتهم فيها تختلف مراتب قُربهم إلى الله.

قال الله عزّ وجل: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾(١).

ولقد أجاد القائل حيث يقول:

إلهي بكت للخوف منك عصابة   وما كل من يبكي لديك له ذنب
ولكنهم للقرب منك تراهم   مدامعهم تجري فيا حبذا القرب

ومن أجل توقف الإيمان ـ الذي هو أعلى درجة من الإسلام ـ

---

(١) سورة المجادلة: الآية ١١.

عند المقابلة على حصول هذه المقامات، كذب الأعراب في دعواهم للإيمان، حيث قال عزّ من قائل: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾(١).

فيا خجلتاه!.. ويا فضيحتاه!.. ممن يكذب في ذلك اليوم في دعواهم الإيمان، وهو يسمى باسم المؤمن، وتموّه عليه نفسه أنه من المؤمنين فما أحقّه بقول القائل:

كذبتك نفسك لست من أهل الهوى
للعاشقين علائم ودلائل

وليتنا تنبهنا لقول القائل أيضاً:

إن كنت تهوى القوم فاسلك طريقهم
فما وصلوا إلا بقطع العلائق

هذا ونحن نسمع الله يقول: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٢).

ونسمعه يقول: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾(٣).

فإذا تحقّق توقُّف الإيمان على التوكّل والتسليم، وما في

(١) سورة الحجرات: الآية ١٤.
(٢) سورة المائدة: الآية ٢٣.
(٣) سورة النساء: الآية ٦٥.

معناهما من التفويض، فينبغي المبالغة والاجتهاد في تقوية ما هو مناط وصف الإيمان وعليه تدور رحاه.

إذ مدار هذا الحثّ العظيم في الكتاب العزيز والسُّنّة للمؤمنين على الإيمان ولوازمه التي ذكرناها، حتى أنه عز وجل يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾(١) إنما هو تحصيل القدر المعتد به من الإيمان، بحيث يكون بمنزلة مستوى الخلقة الذي تنصرف إليه الإطلاقات، ويظهر فيه ترتيب الثمرات.

فأما أقلّ ما يحصل به مسمّى الإيمان، فهو حاصل لهم فلا يكلف بتحصيلـه، وأما على الأفراد فهو كمال زائد، وهو غير محدود بحدّ، فلا يليق أن ينفي اسم الإيمان بدونه.

فصار الحثّ العظيم على ترتيب المرتبة الوسطى، التي هي بمنزلة مستوى الخلقة الذي هو الفرد المتيقّن في الامتثال للأوامر المطلقة فما دونه، كأنه محلّ شكٍّ في الإرادة، وما هو أعلى لو حصل فلا ريب أنه أكمل.

وهذه المرتبة الوسطى هي المعروفة باستجماع المرتبة الوسطى من هذه اللوازم.. فما دونها من المراتب يطلق عليها الاسم نظراً إلى صدق الماهيـة، ويُنفى عنها نظراً إلى أنها ليست المرادة، ومعظم القصد إلى ما فوقها.

---

(١) سورة النساء: الآية ١٣٦.

فإذا قد تدبرت هذه الجملة، فلا مناص عن تشمير الساعد، وبذل الجهد والهمّة في تحصيل القدر المعتد به من الإيمان، بحيث يقطع بصدق اسمه عليه ولا يصحّ سلبه.

وعليه دلّ الصادق عليه السلام على ما رواه الكافي بقوله عليه السلام: «**إنكم لا تكونون صالحين حتى تَعرفوا، ولا تعرفون حتى تَصدقوا، ولا تصدقون حتى تسلّموا، أبواباً أربعة لا يصلح أولها إلا بآخرها، ضلّ أصحاب الثلاثة فتاهوا تيهاً بعيداً**»(١).

وكذلك نبّه أمير المؤمنين عليه السلام على ما في الكافي، عن الصادق عليه السلام، عن أبيه عن آبائه عليهم السلام، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**الإيمان أربعة أركان: التوكّل على الله، والتفويض لأمر الله، والرضا بقضاء الله، والتسليم لأمر الله عزّ وجلّ**»(٢).

وكذلك بيّنه وشَرَحه مولانا موسى بن جعفر عليه السلام على ما في تحف العقول بقوله عليه السلام: «**ينبغي لمن عقل عن الله أن لا يستبطئه في رزقه، ولا يتهمه في قضائه**».

وسُئل عن اليقين، فقال: «**يتوكّل على الله، ويسلِّم لله، ويرضى بقضاء الله، ويفوضّ أمره إلى الله**»(٣).

---

(١) الكافي: ج٢، ص٣٩.
(٢) المصدر نفسه: ج٢، ص٤٧.
(٣) تحف العقول: ص٤٠٨.

وكذلك نبّه رسول الله ﷺ على ما يلزم الإيمان والمعرفة من الأحوال والصفات، وعلى ما فقد من درجة أولياء الله، فقال على ما في الكافي عن الصادق عليه السلام عن جدّه النبي ﷺ: «**من عرف الله وعظّمه منع فاه من الكلام، وبطنه من الطعام، وعَفى** [في بعض المصادر: عنى] **نفسه بالصيام والقيام، قالوا: بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله، هؤلاء أولياء الله؟**

قال: إنّ أولياء الله سكتوا فكان سكوتهم ذكراً، ونظروا فكان نظرهم عبرة، ونطقوا فكان نطقهم حكمة، ومشوا فكان مشيهم بين الناس بركة، لولا الآجال التي كتبت عليهم لم تقرّ أرواحهم في أجسادهم، خوفاً من العذاب، وشوقاً إلى الثواب»(١).

وكذلك نبّه مولانا علي بن الحسين عليه السلام على ما يلزم الإيمان والمعرفة، من الصفات التي للمؤمن والمعارف، بقوله على ما رواه عنه الطبرسي في الاحتجاج شعراً:

من عرف الله فلم تغنه معرفة الربّ فذاك الشقي
ما يصنع المرء بعز الغني والعزّ كل العزّ للمتقي
ما ضرّ ذا الطاعة ما ناله في طاعة الله وماذا لقي(٢)

فأصل هذه الخيرات، والذي عليه مدار الأمر في كل هذه

(١) الكافي: ج٢، ص١٨٦.
(٢) الاحتجاج: ص٣١٧، باختلاف

المقدمات، إنما هو دوام مراقبة الله في جميع الحالات، بحيث لا يغيب عن نظرك، كما أنك لا تغيب عن نظره[١].

وهو قول النبي ﷺ لأبي ذر: «**اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[٢].

وفي بعض الأحاديث: «**فإن كنت ترى أنه يراك ثم عصيته، فقد جعلته أهون الناظرين إليك**».

فإذا داومت على مراقبة الله، وتركت العلائق التي تشغلك عن التوجّه إلى الله والالتفات إليه، فلا بدّ حينئذٍ أن تشاهد ألطافه، وجميع عناياته بك، ورأفته وصفحه عنك، وستره عليك، وتبديله مساويك بالمحاسن، وسيئاتك بأضعافها من الحسنات، فعند ذلك يرسخ حبّه في قلبك، وتنبعث جوارحك لطاعته، كما تنبعث إلى

(١) إنّ ما ذكره المؤلف هنا هو نتيجة ما ورد في كتب الأخلاق، وهو اللبّ اللباب الذي توصّل إليه الواصلون من أولياء الله تعالى، فإنّ هذه المراقبة نتيجة للمجاهدة الأولية، وهي بنفسها مقدمة لمراقبة أخرى شديدة ومستوعبة لكلّ شؤون الحياة، فالعابد الذي لا مراقبة له، كالذي يبذر البذرة هنا وهناك، في كلّ أرضٍ خصبةٍ وسبخةٍ، ولا يتعهدها بنفسه أو مستعيناً بغيره، بالسقي والإنبات، ولو أنه أحاط البذرة بالمراقبة والرعاية، لاهتزت وربت وأنبتت من كلّ زوجٍ بهيج. (المحقق).

(٢) أمالي الطوسي: ج٢، ص١٣٨.

طاعةِ كلّ محسنٍ ممّن هو دونه، والقلوب مجبولةٌ على حبّ من أحسن إليها، فكيف بهذا المحسن العظيم الرؤوف الرحيم.

ولذلك تنزجر نفسك عن السعي فيما يخالف رضاه، حياءً من مقابلة الإحسان بالإساءة، أو رهبةً منه عند استيلاء عظمته على قلبك، أو خوفاً من انقطاع آلائه عنك، كما يقول القائل شعراً:

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم

وكذلك عند التفاتك إليه ينمحي عن نظرك كل فاعل سواه، فلا ترى النافع الضار إلا الله سبحانه وتعالى، وكلّ أحدٍ سواه فإنما يتصرّف بإذنه.

فالقلوب لما أعرضت عن الله سبحانه تعلّقت بهذه الأسباب لنسيانها لمسبّب الأسباب، وإلا فعند ذكرها الله والتفاتها إليه لا ترى للالتفات والتعلق بغيره معنى بالكلية.

وذلك فطري للعقول، إذ عند التمكن من الاستعانة بالأقوى، كيف يجوز التشبث بالأضعف، بل الذي هو لا شيء بالنسبة إلى ذلك؟!.. خصوصاً بعد كون التوجّه إليه مانعاً من إعانة الأقوى لك، فليس هو إلا كما قال الشاعر:

المستغيث بعمرو عند شدّته كالمستغيث من النار بالرمضاء

ولهذا لما عرض جبريل عليه السلام إلى إبراهيم عليه السلام وهو في المنجنيق، وقد رُمي إلى النار فقال له: يا أخي يا إبراهيم هل من حاجة؟!.

أجابه إبراهيم عليه السلام: «**أما إليك فلا**».

فجعل الله عليه النار برداً وسلاماً[(١)].. وأنزل الله بشأنه ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾[(٢)].

فكذا كلّ من حصل له الالتفات إلى الله تعالى في ذلك الحال ـ بنسبة مقامه ـ يقطع نظره عن جميع الأسباب، ويقصر نظره إلى مسبّب الأسباب، وعلامة صدق ذلك، استقرار صدق قلبه، وعدم اضطرابه لفقد الأسباب، بل يكون وجودها وفقدها على السواء.

حتى سمعت من بعض العارفين ـ أعلى الله مقامه، ورفع في الدارين أعلامه ـ أنه ربما يحصل له اضطراب عند حصول الأسباب واجتماعها، فإذا فقدت يكمل استقرار قلبه، ويرتفع عند الاضطراب بالمرة.

وهذا أعلى مقامات التوكّل وأصدقها، وكأنّ منشأ الاضطراب عند حصول الأسباب هو توجّه الأمر الإلهي بملاحظة الأسباب، فإنّ ملاحظتها مع عدم الاعتماد عليها مطلوبة ومأمور بها، فلا جرم يتشعب القلب بقدر تصوره لها وذكره إياها[(٣)].

---

(١) البحار: ج١٢، ص٣٣.

(٢) سورة النجم: الآية ٣٧.

(٣) يا لها من ملاحظة لا يهتدي إليها من شرح الله صدره لنوره، الذي يقذفه في قلب من يشاء!.. وهذه صورة الجمع بين عالم الأسباب والتوكّل الصادق على مسبّب الأسباب.. فلا يرى الموحّد ـ بعد =

فأما إذا ارتفعت وانحصر نظر القلب إلى جهة واحدة، استقر واطمئن بذكر الله كما وصف الله في كتابه العزيز: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾(١).

وكذلك علامة صدقه، أن لا يتأثر قلبه على من يمنعه الشيء عند الطلب منه، بل يجب أن يكون حاله كما كتب بعضهم إلى بعض الحكام، وقد كتب إليه يطلب منه بعض ما ائتمنه الله عليه من رزقه، ولِنعمَ ما كتب حيث قال: إن أعطيتني فالله المعطي، وقد أجرى الخير على يديك، وإن منعتني فالله المانع ولا بأس عليك، ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك.

فمن كان نظره إلى مسبّب الأسباب، وأنّ الأسباب آلاتٌ مسخرةٌ لا يتأثر قلبه من الآلات، ولا يغضب عليها.

نعم، إذا كان من أجرى الخير على يديه لأن يكافئ بالإحسان لم يسقط حقه بكونه مسخّراً، فإنّ صاحب الإحسان الحقيقي قد

= النظر إلى الحقّ المتعال ـ سبباً في الوجود يستحقّ الالتفات القلبي إليه، وإن عمل به خارجاً لأنه مأمورٌ به.. فهو يسعى وراء الأسباب، وقلبٌ خائفٌ ووجلٌ لخشيته من الذهول عن الحقّ، الذي لو أعرض عنه، أوكله إلى تلك الأسباب.. فلا يرى إلّا الخيبة والخسران، إذ اتخذ من الفاني إلهاً يُعبد من دونه!.. (المحقق).

(١) سورة الرعد: الآية ٢٨.

أثبت له عليك حق المكافأة، وأوجب شكره عليك، بل لا يقبل منك الشكر إلا بشكرك لمن أجرى الخير على يديه(١).

وهذا أصلٌ عظيمٌ قد تغافل عنه بعض إخواننا الأتقياء، حيث أغلب نظره إلى الله، فلا يرى للخلق حقّاً واجباً في الإحسان الذي يجريه الله على أيديهم، وهذا خطأٌ واشتباهٌ عظيمٌ، وجهلٌ بطريقة أهل البيت عليهم السلام، وبما نفس الأمر والواقع.

فأما طريقة أهل البيت عليهم السلام ففي الكافي عن علي بن الحسين عليه السلام: «**إنّ الله يقول لعبدٍ من عبيده يوم القيامة: أشكرت فلاناً؟**

فيقول: بل شكرتك يا رب.

فيقول: لم تشكرني إذ لم تشكره.

ثم قال: أشكركم لله أشكركم للناس»(٢).. وهو نصٌّ صريحٌ فيما نقلناه.

---

(١) إشارة إلى حالة التفريط التي ابتُلي به من لا حظّ له من المعرفة الدقيقة.. ومثل هذا التفريط وأشباهه كثير في الذين دخلوا الطريق من دون إلمام بقواعده، ومن دون رجوع إلى أهل الخبرة في سلوكهم.. وبذلك لم يفوتهم الوصول إلى المقصد فحسب، بل إنهم أساؤوا إلى الصادقين من القاصدين، لأنهم تلبّسوا بلباس لا يليق بهم!.. إن مراعاة حقوق الخلق في كل صوره، لا ينفكّ عن حقوق الخالق، فإنه الآمر بمراعاة الحقوق كلّها، سواء كانت مرتبطة به، أو بعياله من المخلوقين.. (المحقق).

(٢) الكافي: ج٢، ص٨١.

فأما مخالفة هذه الشبهة الواهية لما في نفس الأمر والواقع، فبيانه أنّ أصل هذه الشبهة من العام والمعاندين، حيث أصل النعم من الله سبحانه وتعالى، وقد أجراها على يد محمد وآل محمد الطيبين الطاهرين، فأراد العامة والمعاندون أن يقولوا: نحن نشكرك يا رب، ولا نعرف لهذه الوسائط حقاً، فردّهم الله، ولم يقبل شكرهم، إلا بأن يشكروا لمن أجرى الخير على أيديهم، فجعل من شكره الاعتراف لمن جرى الخير على يديه بالإحسان، والشكر له على ذلك، فقد جعلهم الله الباب إليه، فكل من لم يأت من الباب طُرد وبعد.

وكذلك المعارف والطاعات، أراد العامّة أن يتوجّهوا إلى الله من دون واسطة محمد وآله الطيبين الطاهرين[١] فردّها الله عليهم،

(١) انتقالٌ جميلٌ من المؤلف من ضرورة مراعاة حقوق عامة الخلق، ولزوم شكر المحسن منهم، إلى ضرورة مراعاة حقوق خاصة الخلق الذين يمثلون أرقى صور العبودية في هذا الوجود.. ولقد ختم المصنّف في آخر كتابه بمسك الختام، إذ ربط السير إلى الله تعالى بالارتباط التفصيلي بالهداة إليه.. ومن هنا لا ينقضي العجب من الذين راموا الوصول إلى الله تعالى، من غير الباب الذي أمرهم بطرقه، وقد أوصى النبي ﷺ بالتمسّك بهم إلى جانب كتاب ربّه، فالتارك لهم تاركٌ لما يوجب النجاة عند الاعتصام بالعروتين اللتين لا يكفي إحداها سبباً للنجاة.. وهذا هو السبب في أن التارك لنهجهم عليهم السلام لم يصل إلى درجة من درجات الكمال، وإن ادعاها بنشره أو أبدى أشواقه بشعره، فإن الوصول إلى الله تعالى، لا يُنال بالدعاوى والأوهام.. (المحقق).

ولم يقبلها منهم إلا بالتسليم لأوليائه، والأخذ منهم، والردّ إليهم، والتوجّه بهم، وكل ما لم يكن بواسطتهم فهو مردودٌ على صاحبه، ووبالٌ عليه.

وإنكار حقّ المحسنين الذين جرى الخير على أيديهم من سائر الناس شعبة من هذه الشبهة الملعونة، جرت إلى قلوب بعض أصحابنا الصلحاء من دون تنبّه لأصلها وحقيقتها، وقد كشفنا القناع عنها ليتحرّز من الوقوع فيها والله العاصم.

ويعجبني أن أنقل في هذا الباب حديثاً عجيباً شافياً وافياً، عثرت عليه في (تحف العقول) للفاضل النبي الحسن بن علي بن شعبة، من قدماء أصحابنا، حتى أنّ شيخنا المفيد (ره) ينقل عن هذا الكتاب، وهو كتابٌ لم يسمح الدهر بمثله.

والحديث أنه دخل على الصادق رجلٌ فقال له: ممن الرجل؟.. فقال: من محبيكم ومواليكم.

فقال الصادق عليه السلام: «**لا يحبّ الله عبدٌ حتى يتولّاه، ولا يتولّاه حتى يوجب له الجنة**».

ثم قال له: **من أي محبينا أنت؟**.

فسكت الرجل.

فقال سدير: وكم محبّوكم يا بن رسول الله؟.

فقال له: **على ثلاث طبقات:**

طبقةٌ أحبونا في العلانية، ولم يحبّونا في السرّ. . وطبقةٌ يحبّونا في السرّ، ولم يحبّونا في العلانية. . وطبقةٌ أحبّونا في السرّ والعلانية، هم النمط الأعلى، شربوا من العذب الفرات، وعلموا تأويل الكتاب، وفصل الخطاب، وسبب الأسباب، فهم النمط الأعلى، الفقر والفاقة وأنواع البلاء أسرع إليهم من ركض الخيل، مسّتهم البأساء والضرّاء، وزلزلوا وفتنوا، فمن بين مجروحٍ ومذبوحٍ، متفرقين في كلّ بلادٍ قاصية، بهم يشفي الله السقيم، ويغني العديم، وبهم تُنصرون، وبهم تُمطرون، وبهم تُرزقون، وهم الأقلّون عدداً، الأعظمون عند الله قدراً وخطراً.

والطبقة الثانية النمط الأسفل، أحبّونا في العلانية، وساروا بسيرة الملوك، فألسنتهم معنا وسيوفهم علينا.

والطبقة الثالثة النمط الأوسط، أحبونا في السرّ، ولم يحبّونا في العلانية.

ولعمري لئن كانوا أحبّونا في السرّ دون العلانية!. . فهم الصوّامون بالنهار، القوّامون بالليل، ترى أثر الرهبانية في وجوههم، أهل سلمٍ وانقياد.

قال الرجل: فأنا من محبيكم في السرّ والعلانية.

قال الصادق عليه السلام: **إن لمحبّينا في السرّ والعلانية علامات يُعرفون بها.**

قال الرجل: وما تلك العلامات؟.

قال: **تلك خلال:**

أولها أنهم عرفوا التوحيد حق معرفته، وأحكموا علم توحيده، والإيمان بعد ذلك بما هو، وما صفته، ثم علموا حدود الإيمان، وحقائقه، وشروطه، وتأويله.

قال سدير: يا بن رسول الله، ما سمعتك تصف الإيمان بهذه الصفة!.

قال: **عم يا سدير، ليس للسائل أن يسأل عن الإيمان ما هو حتى يعلم الإيمان بمن.**

قال سدير: يا بن رسول الله، إن رأيت أن تفسّر ما قلت؟.

قال الصادق عليه السلام: **من زعم أنه يعرف الله بتوهّم القلوب، فهو مشركٌ.**

ومن زعم أنه يعرف الله بالاسم دون المعنى، فقد أقرّ بالطعن، لأنّ الاسم محدث.

ومن زعم أنه يعبد الاسم والمعنى، فقد جعل لله شريكاً.

ومن زعم أنه يعبد الصفة لا بالإدراك، فقد أحال على غائب.

ومن زعم أنه يعبد الصفة والموصوف، فقد أبطل التوحيد، لأنّ الصفة غير الموصوف.

ومن زعم أنه يضيف الموصوف إلى الصفة، فقد صغّر بالكبير، ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾[(١)].

قيل له: فكيف سبيل التوحيد؟.

قال: **باب البحث ممكن، وطلب المخرج موجود، إن معرفة عين الشاهد قبل صفته، ومعرفة صفة الغائب قبل عينه.**

قيل: وكيف نعرف عين الشاهد قبل صفته؟.

قال: **تعرفه، وتعلم علمه، وتعرف نفسك به، ولا تعرف نفسك بنفسك من نفسك، وتعلم أن ما فيه له وبه كما قالوا ليوسف:** ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ﴾[(٢)].

فعرفوه به ولم يعرفوه بغيره، ولا أثبتوه من أنفسهم بتوهّم القلوب، أما ترى الله يقول: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ﴾[(٣)].

يقول: **ليس لكم أن تنصبوا إماماً من قبل أنفسكم، وتسمّونه محقّاً بهوى أنفسكم وإرادتكم.**

ثم قال الصادق عليه السلام: **ثلاثة لا يكلّمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكّيهم، ولهم عذابٌ أليمٌ: من أنبت شجرةً لم ينبتها الله ـ يعني من نصب إماماً لم ينصبه الله ـ ومن جحد من نصبه**

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٩١.

(٢) سورة يوسف: الآية ٩٠.

(٣) سورة النمل: الآية ٦٠.

الله.. ومن زعم أن لهذين سهماً في الإسلام، وقد قال الله: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾(١).

وأما صفة الإيمان قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: معنى صفة الإيمان الإقرار والخضوع لله، بذلّ الإقرار والتقرّب إليه به، والأداء له بعلم كلّ مفروضٍ من صغيرٍ أو كبيرٍ، من حدّ التوحيد فما دونه إلى آخر باب من أبواب الطاعة، أولاً فأولاً، مقروناً ذلك كلّه بعضه إلى بعض، موصولٌ بعضه ببعض.

فإذا أدّى العبد ما فرض الله عليه، مما وصل إليه على صفة ما وصفناه، فهو مؤمنٌ، مستحقٌّ لصفة الإيمان، مستوجبٌ للثواب.

وذلك أنّ معنى جملة الإيمان الإقرار، ومعنى الإقرار التصديق بالطاعة كلها، صغيرها وكبيرها، مقروناً بعضها إلى بعض، فلا يخرج المؤمن من صفة الإيمان إلا بترك ما استحق به أن يكون مؤمناً.

وإنما استوجب واستحقّ اسم الإيمان ومعناه، بأداء كبار الفرائض موصولة، وترْك كبار المعاصي واجتنابها، وإن ترَكَ صغار الطاعة وارتكب صغار المعاصي فليس بخارجٍ من الإيمان، ولا تارك له، ما لم يترك شيئاً من كبار الطاعة، ولم يرتكب شيئاً من كبار المعاصي، فما لم يفعل ذلك فهو مؤمنٌ، لقول الله تعالى: ﴿إِن

(١) سورة القصص: الآية ٩٦.

تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾(١).

يعني المغفرة ما دون الكبائر، فإن هو ارتكب كبيرة من كبائر المعاصي كان مأخوذاً بجميع المعاصي، صغيرها وكبيرها، معاقباً عليها معذباً بها.

فهذه صفة الإيمان، وصفة المؤمن المستوجب للثواب(٢).

انتهى ما أردنا نقله، وله تتمة من أرادها فليطلبها، وقد اشتمل من تنويع المحبة لأهل البيت عليهم السلام ـ التي هي عنوان الإيمان، ومنها يعلم تنوّع الإيمان ـ على ما لم يشتمل عليه غيره من الأحاديث.

وما لم يوجد مجتمعاً في حديث، وإن كانت الأحاديث مع جمعها بضمّ بعضها إلى بعض، تقصد ما في هذا الحديث الشريف.

وكذلك أحاديث أهل البيت عليهم السلام يفسّر بعضها بعضاً، لا يخالف بعضها بعضاً، وإنما يرى الاختلاف فيها لعدم معرفة المقامات التي سيقت لبيانها، وكل منها يقصد به بيان مقام من المقامات، ويُشار به إلى غيره من المقامات بالإشارة والتلويح، لينال كلّ أحدٍ نصيبه.

﴿قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾(٣).

---

(١) سورة النساء: الآية ١٣.

(٢) تحف العقول: ص٣٢٥.

(٣) سورة البقرة: الآية ٦٠.

الباب الحادي عشر

في أنّ لأهل الإيمان درجات
يتفاضلون فيما بينهم في حدودها

فيما جاء في تعداد درجات أهل الإيمان وسهامهم وأنّ المقداد ـ رضوان الله عليه ـ في الثامنة، وأبا ذر ـ رضوان الله عليه ـ في التاسعة، وسلمان ـ رضوان الله عليه ـ في العاشرة.. وما وراء عبادان قرية.

ففي الكافي عن عبد العزيز القراطيسي قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام:

«يا عبد العزيز!.. إنّ الإيمان عشرُ درجاتٍ، بمنزلة السلم يصعد منه مرقاة بعد مرقاة».

فلا يقولن صاحب الاثنتين لصاحب الواحدة: لست على شيءٍ، حتى ينتهي إلى العاشرة، فلا تُسقط مَن هو دونك فيُسقطك من هو فوقك، وإذا رأيت من هو أسفل منك درجةً، فارفعه إليك

برفقٍ، ولا تحملن عليه ما لا يطيق فتكسره، فإنّ من كسر مؤمناً فعليه جبره[١].

وصلى الله على محمد وآل محمد الطيبين الطاهرين.

وقد حال القضاء دون التمام، فأسأل الله الملك العلّام أن يخلف علينا مَن يتمّ هذا الكلام، ولا ييأس من رحمته إلا القوم اللئام.

(١) الكافي: ج٢، ص٣٧.

الفهرس

تعريف بالكتاب والمؤلف ٥

مقدمة المؤلف ١٣

الباب الأول: في الحاجة إلى تهذيب الأخلاق، وبيان ثمرته وشدّة الاعتناء بشأنه ١٥

الباب الثاني: في رجحان الخوض في علم الأخلاق وصرف برهة من العمر فيه ٢٤

الباب الثالث: في بيان أن الله خلقنا للسعادة الدائمة، أعدّها لنا وأعدّنا لها ٢٨

الباب الرابع: في ذكر بعض الطرق إلى الله تعالى ٣٣

الباب الخامس: في إيضاح عجز الإنسان من حيث هو ٤٦

الباب السادس: وكيف يسلك عباد الله الطريق إليه ٥٦

الباب السابع: كيف نسلك الطريق إلى الله؟ ٧١

الباب الثامن: لا يكمل إيمان المؤمن حتى تكون فيه خصال ٨٨

الباب التاسع: في الرضا بالقضاء ١١٢

دقائق الملاحظات مما نبّه عليه أهل البيت عليهم السلام شيعتهم ١٢٥

الباب العاشر: فيما يتبع الرضا بالقضاء من التوكّل والتفويض والتسليم ١٣٢
الباب الحادي عشر: في أنّ لأهل الإيمان درجات يتفاضلون فيما بينهم في حدودها ١٤٩